

شخصية العدد:

الشيخ أحمد مازقة لحبيباتني
«صفحات من سيرته ونضاله»

من أعلامنا المنسيين... الشيخ أحمد مرزقة لحبيباتني

«صفحات من سيرته ونضاله»

د. خير الدين شترة

قسم التاريخ-جامعة المسيلة-

مقدمة

لقد تنوعت أشكال المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي الدخيل، تراوحت بين المطالبة بالتغيير الجذري الراديكالي والفوري مع الأخذ بنواميس المواجهة المتوفرة، حيث اتخذت لها أساليب عدة كالمواجهة العسكرية التي سميت في الأبحاث التاريخية المعاصرة بالمقاومة الشعبية المسلحة، والمقاطعة الاقتصادية والاجتماعية والهجرة من الأرض التي استولى عليها الرومي؛ وبين المطالبة بالتغيير المهادن الآجل مع إتباع أساليب وأدوات المواجهة التي تستمد مكوّناتها من ذاتية المجتمع وهويته كالتعليم العربي الإسلامي والعمل الفكري والأدبي والنشاط الاجتماعي والديني، وكما لا يمكن وضع إطار زمني محدد لكلا الشكلين على أساس السابق واللاحق، أيضاً لا يمكن أن نعطي الأولوية لأحدهما على الآخر، ففي النمطية اللفظية الخاطئة التي انطبعت لدى الذهنية الجزائرية بصفة عامة ولدى المهتمين بتاريخ الجزائر الحديث بصفة خاصة، من أن صورة الرفض للوجود الاستعماري إنما تجسّدت في شكل المقاومة الراديكالية فقط دون غيرها، وأن الوطني الوحيد هو من حمل سلاحاً، وغيره سُمّي بمسميات قلّت أو كثُرت تشترك في أنها ليست وطنية، ولا تنتمي إلى التيار الوطني، على شاكلة التيار الديني الإصلاحية، أو التيار السياسي النيابي... أو أن شهيد الوطن من قُتل في

المواجهة العسكرية دون غيرها، رغم أن شهداء القضية الجزائرية كثروا وتنوعوا؛ فمنهم من استشهد بقلمه (كالأديب والصحفي..)، ومنهم من استشهد بفكره وعلمه (كالمدرسين والأئمة والخطباء والدعاة والمربين..) وهلمَّ جرأً.

حتى أننا عندما نريد أن نسوّق صورة المقاوم الوطني في ذهنية أطفالنا نرسم لهم رجلاً جزائرياً يحمل بندقية، رغم أن نسبة الذين حملوا البندقية في وجه الاستعمار الفرنسي إبان الثورة التحريرية أقل بكثير من نسبة الذين واجهوا الاستعمار بالأساليب الأخرى كالعمل الصحفي والأدي والسياسي والنقابي والطلابي والعلمي والتعليمي والإيديولوجي.... وهذا ليس دافعه الجبن أو مخافة الهلاك من المواجهة المسلحة وإنما هي المعركة التي تقتضي المواجهة على أكثر من صعيد. حتى عندما جئنا لنُشيد تمثالاً لمؤسس الدولة الجزائرية الأمير عبد القادر شيدناه وهو يحمل سيفاً لا كتاباً أو قلماً رغم أنه كما كان رجل سيف وبندقية كان أيضاً رجل فكر وقلم وثقافة... فالمسألة أن القضية الجزائرية لم تنتصر في نهاية الأمر كل هذا الانتصار الباهر لولا تكاتف كل المخلصين من أبنائها من اليمين إلى اليسار.

ومن دون غمط حق فئة على أخرى... فالكل سواء من دعاة التغيير الراديكالي (الذين لقبوا فيما بعد بالتيار الاستقلالي)، أو التغيير الأفقي الآجل، المعتمد على الأسلوب التربوي والتعليمي والصحفي والتأليفي.... كلهم خدموا القضية الجزائرية... ومن الجحود أن ننكر جهود أهل العلم والأدب والفكر والتربية في بناء النهضة الجزائرية وإن كانت تعمل تحت ظل الإدارة الاستعمارية الفرنسية كالأئمة والقضاة والمفتيين والصحفيين والنواب السياسيين.. وغيرهم، فالمطلوب الآن مصالحة تاريخية شاملة تُعطي لكل حق حقه، والحق هنا يُقاس بمقدار ما تمّ تقديمه قرباناً وفداءً للوطن، وتضحية وبسالة لأجل أن نعيش نحن في ظل حرية وارفة، وكرامة ضامنة للعيش باعتزاز.

فبجهود الجزائريين الذي قاوموا المغتصب المحتل بالسلاح وبالفكر والكلمة وبالدعاء.. والتي انطلقوا بها منذ النصف الأول من القرن 19م ومنتصف القرن 20م. وإنتاجهم المتنوع وفكرهم الإصلاحية المتنور، ما كانت الجزائر المستعمرة

تنهض من كبوتها وتعلن عن وجودها في ثورة عارمة حيّرت الاستعمار وأذنا به
وغيّرت مجرى التاريخ ليس للجزائر فقط بل حتى لدى أقطار أخرى كثيرة. فالتأليف
والتعليم والكتابة الصحفية... أثناء فترة الاحتلال الفرنسي كانت تُشكل وسيلة
من وسائل الكفاح الوطني ضد الاحتلال الأجنبي، وضد من شوّه ماضي الجزائر،
وذلك لأنها كانت ترمي إلى إثبات الوجود القومي والملي وإحياء الوعي الوطني لدى
الجزائريين.

إن جزائر نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تبنت في معارضتها
للحكم الفرنسي سياسة جديدة غير تلك التي مارستها من قبل، سياسة لا تقوم على
الثورة والعمل المسلح بل تنشّد تحقيق الوعي السياسي والثقافي للمجتمع، وسيلتها
في ذلك العمل التربوي والتعليمي والصحفي، وتأسيس النوادي والجمعيات الثقافية
فنادت بالتحريير عن طريق التعليم، وحاولت الحفاظ على الهوية الوطنية مخافة طمسها
بنشر تعاليم الدين الحنيف وإعادة كتابة التاريخ الصحيح، وبعث الحياة في لغة الأصل
والأجداد... فقد شهدت هذه الفترة نشاطات اجتماعية وثقافية حيّة قادها جيل من
العلماء الأعلام والمصلحين العظام.

ومن المظاهر الهامة لهذا العهد؛ طبع وإحياء الأعمال التاريخية الجزائرية، فالعصر
الذهبي هذا قد فتح أمام الجيل الجديد الذي كان قد نسي في أغلب الأحيان مساهمات
أجداده في الحضارة الإنسانية وفي هذا الإحياء للتاريخ الوطني تحقيق للربط بين
الأجيال، وبين سنوات 1900 - 1910 نُشرت أعمال: «نحلة اللبيب» لابن عمار
و«البستان» لابن مريم، و«نزهة الأنظار» للورتيلاي، و«عنوان الدراية» للغبريني،
و«تعريف الخلف برجال السلف» للشيخ أبو القاسم الحفناوي... الخ.

وعليه فإن انجازات وأعمال وأدوار هؤلاء تُعدّ تراثاً وطنياً وجب صيانتها وحمايتها،
وتعريف الأجيال الحالية واللاحقة به، ولعل هذا النوع من الملتقيات يدخل في أول
هذه البادرة من منطلق الوفاء للذين أعطوا علماً وأدباً في زمن قلّ فيه من يُشجّع على
هذا العطاء، فواجب الصيانة والحماية يقتضي منّا البحث أيضاً عن إسهام علمائنا
وأدبائنا في الحياة الثقافية والأدبية. فالفترة التي عاشها الشيخ أحمد مرازقة لا تخلوا من

الضيقة والقتامة، والفكر فيها طابعه التقليد والاحترار، فجاء مترجمنا ثمرة من ثمرات بيئته الوطنية والإقليمية معاً.

إن حياة الشيخ أحمد مرازقة لحبيباتي تُمثل أحد النماذج النادرة للمثقف الجزائري الريفي في العهد الاستعماري من عدة وجوه، ومنها تواضع أهل الريف واستغلال السلطات الاستعمارية لهم، بما يخدم مصالحها ومشاريعها، ومن مميزات المثقف الريفي أيضاً هو تنوع مصادر الثقافة لديه؛ ذلك أن لحبيباتي قد نهل من مختلف الزوايا والمعاهد والكتب القديمة والحديثة قبل الالتحاق بقسنطينة والاستقرار فيها، فتعلّم منها بعض العلوم الجديدة التي يندر الحصول عليها في زوايا العلم بالأرياف، كما توظّف لدى الإدارة الرسمية «1888 - 1930م»، وكثرت رحلاته باتجاه الشرق والغرب، وزاد رصيده الفكري باندماجه في المحيط الثقافي المتمدن بالمدن الكبرى التي يندمج فيها الأهالي بالمعمرين، وبهذا التنوع صُقلت شخصية علمية وأدبية وفكرية سيكون لها الأثر البالغ في تشكيل الملامح الأولى للنهضة الجزائرية الحديثة، يضاف إلى كل هذا الرصيد الفسيفسائي أن لحبيباتي ممن عُرف عنهم العمل الدؤوب وإتقان المهنة والتفرغ لها مع ضيق مجالات الطموح إلى الأدوار الكبيرة والمغامرات الخطيرة.

ورغم كل ما تمتلكه هذا الشخصية من ملامح النبوغ والتميّز، ورغم كل العطاء الذي قدمته على المستوى التعليمي أو الديني أو الاجتماعي.. إلا أنه قد طالها تعسف كبير من لدن المؤرخين والباحثين المهتمين بهذه الفترة. لقد عاش مترجمنا في بيئة ذات اهتمام علمي مميز، فاحتك احتكاكاً مباشراً بالحياة الثقافية في منطقته وفي غيرها، حيث كان الاهتمام بالتراث ظاهرة متميزة في تلك الفترة بالجزائر غير مفصولة عن الظاهرة ذاتها في المشرق العربي خاصة في أوائل النهضة.

وكان لحبيباتي قد تردد أيضاً كأقرانه على الزوايا التيجانية للقراءة والتعلّم، ويظهر من جملة الكتابات والمقالات والرسائل خصوصاً التي واكبت مرحلة مرضه ووفاته أنه متأثر بثقافة الطرق الصوفية، ولكنه لم يؤسس طريقة صوفية كما فعل بعض الشيوخ، ولا ندري ما الذي جاء به إلى قسنطينة وكيف كان استقراره بها إلا من مصدر واحد وهو ما قاله تلاميذه في تأبينه وفاته، لقد كان لحبيباتي في العشرينيات من عمره عندما

جاء إلى قسنطينة سنة 1886م (فترة الحاكم العام لويس تيرمان)، وسرعان ما وجد طريقه إلى الوظيفة الرسمي، وكانت صلته بالإدارة الأهلية قوية، وهي الإدارة التي كان يُشرف عليها الضابط المختص في شؤون الطرق الصوفية «لويس رين».

إن أفكاره الظاهرية «النهضة لا تكون إلا بالأخذ بزمام العلوم الحديثة، وتعلم اللغة الفرنسية،...» تتماشى مع الأفكار التي يُريد الفرنسيون ترويجها بين الجزائريين، ويبدو أنه لم يكن له طموح سياسي ولا حتى تطلع إلى الزعامة بل كما كان يقول على نفسه أنه متواضع يُحب العمل، وقد وجدته في الثقافة وقد غرق فيها، إن محيط الشخصيات الفرنسية والطرقية التي كان يتعايش معها قد وضعت الضباب على عينيه فلم يعد يرى أبعد من يومه، والغريب أننا نجد متأثراً بثقافته الصوفية الروحانية كما ورد في تقارير المفتشين الرسميين ولا نكاد نجد متأثراً بالقضايا القومية والأفكار الإصلاحية...، لا في مضمونها ولا حتى في المنهج الذي صُغت به، وإذا كان كثير من القضاة والمدرسين والأئمة والمفتين يفتخرون بأنهم تلاميذ لعبد القادر المجاوي، أو لحمدان الونيسي أو حتى لقرنائه كابن الموهوب وابن باديس وأضرابهم... فإننا نجد إلا القليل النادر من الذين يفتخرون بأنهم تتلمذوا على يد الشيخ لحبيباتي، رغم طول عمره وكثرة المتخرجين والدارسين على يديه «42 سنة»، حقاً إن المجاوي وحمدان الونيسي وأمثالهما كانوا مدرسين بالهواية في مدارس قسنطينة، أما لحبيباتي فقد كان مدرساً بالمهنة!

إن ثقافة الشيخ لحبيباتي في بداية نشأته التعليمية كانت دينية ولغوية وأدبية تستمد من التراث وتحاكبه، ثم طعمها بثقافة عصرية محدودة، وساعده تمكنه الاجتماعي «انتمائه لأكبر القبائل المرابضة بقسنطينة قوة وعدداً (الحدرة)» والديني «سطوة الطرق الصوفية على المجتمع»، من دمجها مع رصيده العلمي والأدبي فكانت النتيجة جملة من المخرجات التي درّسها أو اجتهد في إنتاجها ثم استوحى منها عدداً من الرسائل كان لها تأثير في بعض تلاميذه، وباجتهاداته الفكرية وثقافته الموسوعية، نال اعتراف الكثيرين بسعة علمه، كما أحرز على إعجاب تلاميذه وتقدير أصدقائه ومسؤوليه وبعض معاصريه فأجاز الكثيرين وأجازوه الكثيرون.

إن سيرة الشيخ لحبيباتني تجعلنا نحكم عليه بأنه كان وفياً لدينه ومخلصاً لعقيدته مُصغياً لعقله وضميره.. وفي الوقت نفسه مُعبراً عن أصالته في ثقافته الواسعة بالدين والأدب وفي طريقة تعبيره، وحكم عقله في أكثر مواقفه، ولم يكن من المتعصبين ولا من المغالين في اعتقادهم وولائهم... وإن بعض ما خلفه لنا ليُمكن أن يُعتبر إضافة قوية للحياة الأدبية والفكرية في الجزائر، ولبنّة راسخة تُضاف إلى صرح النهضة الجزائرية الحديثة.

صحيح أن الشيخ لحبيباتني من خلال علاقاته الوطيدة بالإدارة الفرنسية كان يُشجع التعليم للجزائريين بحسب الرؤية الفرنسية، وعلى حمل رسالة فرنسا الحضارية في الجزائر، لكن بالمقابل أيضاً عارض التجنّس ولم يطلبه، ورفض الخدمة العسكرية الإلزامية ولم يدعو لها.. وانتقد الإدماج عموماً ودعا للمحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين، وصحيح أيضاً أنه قبل ببعض الإصلاحات الفرنسية المتطرفة التي لا تخدم كلية الأهالي، لكن دون تناقض مع الواقع الجزائري، فكان شعاره دائماً الإصلاح بكل الوسائل، فالشيخ لحبيباتني مثله مثل أعلام جيله ساهم مساهمة فعالة في يقظة الجزائر خلال هذه الفترة، ذلك أنهم جميعاً حاولوا من خلال تركيزهم على مفاهيم التعليم والتقدم أن يُطوروا المجتمع الجزائري وأن يجعلوا منه مجتمعاً حديثاً ومنتوراً بدل أن يبقى مجتمعاً قديماً وتقليدياً، فلم يكونوا لا ثوريين ولا وطنيين متطرفين، بل أنهم لم يحاولوا حتى استعمالها لنشاط معاد لفرنسا، إن بعضهم كان يحاول أن يشجع الإدارة الفرنسية على مساعدتها في التعليم بالأعمال الخيرية، ونظراً لهذا الموقف المعتدل نحو الإدارة الفرنسية، فإن هؤلاء كانوا تحت هجوم عنيف من العناصر الجزائرية المحافظة في ذلك الوقت، أما الجيل الجزائري الحاضر فقد يعتبر أولئك العلماء متعاونين مع العدو، ولكن الحقيقة التاريخية هي أن معظمهم كانوا يعملون بكل حيّة من أجل تنوير وتقدم بلادهم، لقد كانوا يُبشرون «بجزائر فتاة» لا يمكن أن تتحرر إلا بالتعليم والتقدم والتسامح.

إن الجزائر عاشت خلال فترة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في انحطاط فكري مهول استبد بالنفوس جمود وخمول وخيّم عليها اليأس والقنوط، فلم يبق للأمل إلا بصيص من نور يُشعّ في أعماق بعض القلوب القوية المؤمنة، فقد أذاقها

الاستعمار الفرنسي البغيض ألواناً من الجوع والخوف والتعسف، فهاجر من هاجر من العلماء والأبطال، وبقي من لا يقدر على ذلك يتجرعون الغصص ويتقلبون على شوك القتاد ويموتون موتاً بطيئاً في عنت واضطهاد، وكل يوم في حسابهم يساوي شهراً أو أكثر.

وربما كان هؤلاء العلماء قادرين على الفرار بدينهم وحرثهم كما فعل الآخرون، ولكنهم فضلوا البقاء مع الشعب، يُصيبهم ما يُصيبه، وفي ذلك راحة للضمير، وإيثاراً للعذاب أو الموت في أرض الوطن مع عامة الناس ومنهم حالة الشيخ لحبيباتي التي فيها من ملامح الوطنية، وحب التضحية والدفاع عن الهوية والتعلق بالأرض والأجداد الكثير... فهو من القلائل الذين آثروا الاستقرار في الجزائر في الوقت الذين كانت الناس بكل أطرافها تفر من الجزائر إنقاذاً لدينها وعرضها طوعاً أو كرهاً.

1. البيئة الثقافية في قسنطينة وأثرها في بناء شخصية الشيخ أحمد لحبيباتي «1888 - 1937م»

تُعدّ مدينة قسنطينة من أعرق المدن في الجزائر، وفي المغرب العربي، ومن أكثرها مناعةً وتحصناً؛ لموقعها الجغرافي، فهي مبنية على صخرة الغرانيث القاسي، ويمر بها وادي الرمال ويرجع كما يرجح المؤرخون — تاريخ نشأتها وظهورها إلى حوالي سنة 1450 (ق م) لما نزح الكنعانيون إليها، من فلسطين حوالي سنة 1300 (ق م) وامتزجوا بالنوميديين سكان المغرب الأوسط⁽¹⁾، وذهب المؤرخ الفرنسي وشيخ مدينة قسنطينة إرنست ميرسي إلى أنّ نشأة هذه المدينة العتيقة مرتبط بالعهده الذي غادر فيه الإنسان الكهوف، والمغارات وألف الحياة الاجتماعية والانتظام⁽²⁾.

والمدينة لا يرجع تاريخ نشأتها إلى أيام حكم الملك البيزنطي قسطنطين كما توهم كثير من المؤرخين الذين نسبوها إليه، بل وجدت قبل قرطاجنة (880 ق م)، فسيرتا أو قيرطا كانت قاعدة لملك نوميديا إيراباس، الذي كان في نزاع مستمر مع القرطاجنيين، وفيها استقبال وفدهم للصالح، وربما يرجع تاريخ نشأتها إلى العصر

1 - عبد الرحمن الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط7 (1415هـ/1994م) ج1، ص49.

2 - نفس المرجع.

الحجري أو عصر سيدنا إبراهيم عليه السلام، وكانت أهلة بالسكان من البربر، ثم اتخذها ماسينيسا (ت149هـ) عاصمة للمملكة، بعد أن وُحِد قبائل النوميديين. وعرفت قسنطينة عصرها الذهبي، بعد دخول الفاتحين المسلمين أرض المغرب الأوسط حيث دخلت في حكمهم صلحاً. كما يرجّح المؤرخون في حملة الفاتح عقبة بن نافع الفهري (ت63هـ/683م)، أو في حملة حسان بن النعمان (ت86هـ/705م) بعده، ومنذ أسلم أهلها لم يرتدّ عن الإسلام، على غير ما عرف عن غيرهم من برايرة إفريقيا الذين كانوا يرتدون بمجرد عودة الفاتحين إلى المشرق، فلم يرسخ الإسلام في قلوبهم إلا بعد اثنتي عشرة حملة؛ أي مع نهاية القرن الأول الهجري وفي خلافة عمر بن عبد العزيز الأموي (ت101هـ/718م) الذي أمر بتعميم بناء المساجد، والمدارس وبعث البعثات العلمية، لتعليم الناس، وتفقيهم في الدين⁽¹⁾.

ومع استقرار الفاتحين العرب، والمسلمين ببلاد المغرب، عرفت المدينة نوعاً من الاستقلال؛ إذ كان أهلها يتولون شؤونهم بأنفسهم، وهذا إلى غاية القرن التاسع الميلادي وسادت لغة العرب لدى أهل المنطقة مع قدوم قبائل بني هلال⁽²⁾، وعرفت نوعاً من الرقي العمراني، والاجتماعي، والثقافي مع تعاقب الزيريين (362هـ - 543هـ/973 - 1148م) والحماديين (405هـ - 547هـ/1014 - 1152م) أصحاب القلعة ثم بجاية، الذين ولّوا عليها الصنهاجيين، الذين شيدوا الجامع الكبير، الذي لا يزال شاهداً اليوم وهذا في أيام الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، في حدود سنة (530هـ/1136م). والجدير بالذكر أنّ هذه الفترة عرفت تدفقاً للأندلسيين، ومعهم اليهود بعد سقوط آخر حكام الأندلس، فعاش الكلّ في الجزائر— وفي هذه المدينة على الخصوص ساد جوّ من التسامح، والتآلف والتعايش⁽³⁾.

ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي انتقلت المدينة إلى الحفصيين (603هـ - 932هـ/1124 - 1526م)؛ فرع الموحيدين في تونس، وقسنطينة، فازدهرت الحياة

(1) - مجموعة من الأساتذة، الجزائر في التاريخ. ج3، وزارة الثقافة والسياحة. الجزائر. ط1984، ص30 - 31.
 (2) - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة المغرب العربي.. ج4، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر. ط1(1414هـ/1994م)، ج4، ص205 - 215.
 (3) - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة المغرب العربي ج4، ص378، - وانظر: عبد الرحمن الجبالي، تاريخ الجزائر العام. ص199.

الثقافية، والعلمية لاهتمام الولاة بالعلم، وتشجيعهم عليه ببناء المدارس، والمساجد، وحبس الأوقاف عليها فكثرت المدارس الابتدائية⁽¹⁾، التي كانت وظيفتها تربية النشء — وهذا إلى غاية سن الأربعة عشر سنة — على قواعد الإسلام، وعلى نمط اجتماعي محدد، وهي تحفظهم القرآن الكريم، الذي هو أساس الثقافة الإسلامية⁽²⁾. وتناسف الفضلاء من الناس في إنشاء المدارس فكانت للعائلات الكبيرة مدارسها الخاصة بها، كعائلة آل الفقون، التي اقتصت بالفتوى والقضاء، كما شهدت هذه الفترة توسيع الجامع الكبير الذي درّس فيه كبار العلماء فيما بعد كالشيخ المكي البوطالي، والشيخ محمد الشاذلي، والشيخ عبد القادر المجاوي والشيخ حمدان الويسي⁽³⁾ — وكانت تدرّس علوم الشريعة وعلوم الآلة من نحو وصرف وبلاغة وعروض وعلم الحساب والمنطق وغيرها.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى بعض مشاهير العلماء في تلك المرحلة التاريخية، والذين كانوا في قسنطينة: كالقاضي المحدث حسن بن خلف الله (ت 784هـ)، وحسن بن أبي القاسم الفقيه القاضي المحدث (ت 787هـ) الذي أخذ النحو عن ابن هشام الأنصاري وأحمد بن الخطيب المعروف بابن قنفذ (ت 810هـ)، صاحب كتاب الوفيات وطبقات علماء قسنطينة، وله شرح على أصول ابن الحاجب، وشرح على الألفية، وإبراهيم بن فائد ابن موسى بن عمر بن سعيد بن علال الزواوي القسنطيني (ت 857هـ) له تفسير وشرح على الألفية، وتلخيص على المفتاح، وتلخيص على شرح خليل⁽⁴⁾، وأحمد الشمني (ت 872هـ) الذي أخذ عنه السيوطي، وغيرهم كثير لا يسعنا المقام لذكرهم كلهم.

وفي القرن السادس عشر الميلادي آلت المدينة إلى الأتراك، فقد نصّب والي جيغل خير الدين بن يعقوب (ت 1547م)، أحمد بن القاضي نائباً عنه على قسنطينة، ولكن في سنة 1521م تمرد ابن القاضي على خير الدين الذي انطلق من جيغل، فعزى

(1) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص (97 - 100).

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ص 279.

(3) - المرجع نفسه.

(4) - الداوودي، طبقات المفسرين ج 1، ص 17.

مدينة القل، ثم عنابة، وقسنطينة في العام الموالي، وركز بهما حاميتين، وأوصى نائبه الجديد؛ يوسف باحترام الأهالي، فربط معهم صلات حسنة، لاسيما عائلة الفقون، شيخ البلد، الذي مكّنه من الاتصال مع أولاد يعقوب الهلالين، أصحاب النفوذ، والمتحكمين فيها⁽¹⁾، وأعلنت عاصمة لبائلك الشرق. واهتم الولاة بالمدينة وأهلها، وتنافسوا في ذلك، فأقاموا فيها القصور والمدارس الابتدائية، والثانوية، والمساجد، وشقوا الطرق، وبنوا الجسور.

فقد بنى الباي حسن بن حسين (1736م-1754م) سنة (1156هـ/1743م) الجامع الأخضر، الذي كان يدرّس فيه نحو ثمانية مدرسين، ودرّس فيه الشيخ ابن باديس فيما بعد وأخذ العلماء على عاتقهم مهمّة المراقبة، وانتقاد تقاعس الولاة، في تنظيم الأوقاف والسهر على بناء المدارس، فكما أورد الدكتور أبو القاسم سعد الله في تاريخه الثقافي أنّ الورتيلاني انتقد تدهور أحوال المدارس بتدهور الأوقاف، وأنّ ولاية قسنطينة لم يشغلوا ببناء المدارس، ولا بكثرة الأوقاف، مما أدى إلى اندراس العلم⁽²⁾، غير أنّ صالح باي (1771م-1792م) أعطى المدينة طابعها المميز، وذلك بتهيئتها، ونهض بالمدارس وأوقافها، ومن أهم أعماله بناء جامع، ومدرسة القطنية ومدرسة سيدي لخضر، والتي عُني فيها بتدريس اللغة العربية، وجامع سيدي الكتاني، ومدرسته، وكان يهتم بالعلماء والقضاة، فقرّهم واتخذ منهم بطانة ومستشارين، وأجزل لهم العطايا والهبات⁽³⁾، فقد بلغ عدد الزوايا والمساجد، والمدارس حين احتلال المدينة أكثر من مائة مؤسسة دينية وعلمية منظمة لها من يقوم عليها من مدرّسين وأئمة ومعلمي القرآن وقيّمين وحزّابين، وعمال نظافة وصيانة⁽⁴⁾.

احتلت المدينة سنة 1837م، وهي التي امتنعت عن الغزاة لتحصنها بالأسوار واستماتة أهلها في الدفاع عنها تحت قيادة الحاج أحمد باي، فلم تسقط إلّا بعد المحاولة الثانية، التي أعد لها الغزاة جيشاً عظيماً، فحدثت في المدينة مقتلة عظيمة،

(1) - محمد الصالح العتري، تاريخ قسنطينة مر وتق يحي بوغزيز. دار هومة، الجزائر، 2005م ص35، رابح بونار، تاريخ المغرب وحضارته ج3، ص (123 - 124).

(2) - تاريخ الجزائر الثقافي (8/275).

(3) - العتري، تاريخ قسنطينة. ص81.

(4) - نفسه، ص35، - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ص79.

وترامت جثت القتلى من أهل المدينة في كل دار وشارع وساحة، جزاء مقاومتهم عن المدينة شيراً شيراً، وعمّت الفوضى والنهب والسلب في المدينة، التي كانت من أحسن مدن الجزائر نظافة، وجمالاً على الإطلاق، وامتدت أيادي أعداء البشرية والحضارة والعلم، إلى المكتبات العامة والخاصة بالحرق، فعلى سبيل الذكر لا الحصر تمّ نهب مكتبة آل الفقون العظيمة، أصحاب الفتوى في المدينة، والتي قدر عدد كتبها بأكثر من 4 آلاف كتاب ومخطوط نفيس، ويبيع ما سلم منها من الحرق في سوق الخضر بأجنس الأثمان⁽¹⁾، ولنا أن نتصور ما هو قادم من الأعمال الإجرامية المنظمة، إذ كان كل ما رأينا مقدمتها.

وما إن استقر لهم الحال نسبياً في المدينة حتى راحوا ينفذون مخططاتهم، التي جاءوا لتنفيذها في كل الجزائر فقد عملوا على قطع الروافد، التي تمد الجزائريين بالقوة على المواجهة والجهاد، فعمدت أيديهم إلى المؤسسات الدينية المختلفة بالهدم والتحويل إلى ثكنات ومرافق لجيوشهم، وإلى كنائس ومدارس في أحسن الأحوال، فتقلص عددها بشكل رهيب، فبعد أقل من عشر سنين على الاحتلال كادت رسوم العلم تغفو معالمها من المدينة فجاء سوق الغزل الذي بناه الباي حسين (1713-1723م) سنة 1720م ووسّع فيه الحاج أحمد باي (ت1858م)؛ لأنه يجاور قصره، كان محظوظاً إذ حولته إلى كنيسة، لما استقرت بقصر الباي، وجامع رحبة الصوف الذي بناه رجب باي (1666-1673م) فقد حول إلى مستشفى ثم سلّم إلى الراهبات، وبعد الحرب العالمية الثانية حوّل إلى مدرسة فرنسية، ومسجد سيدي عبد الرحمن المناطقي فقد هدم وأقيم مكانه بنايات وساحة⁽²⁾، وحول جامع الأربعين شريفاً، وجامع سيدي أبي عبد الله محمد الصفار (ت750هـ) إلى محكمة للأحوال الشخصية الإسلامية، وإلى روضة أطفال⁽³⁾، وأمّا جامع سيدي فليس، وجامع سيدي عبد الله الشريف وجامع سيدي مفرج، وجامع سيدي بركات العروسي، وجامع سيدي بوقصعة وجامع السيدة حفصة وجامع سيدي الشاذلي وغيرها كثير فكان مصيرها الهدم والاندثار، ولم يسلم

(1) - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، ص 382.

(2) - نفسه، ج 5، ص 84.

(3) - نفسه، ج 5، ص 84.

إلا المساجد الثلاثة الكبيرة: الجامع الكبير ومسجد الكتاني، والجامع الأخضر وبعض الجوامع التي كانت تعلم القرآن الكريم. ولم تكن الزوايا هي الأخرى أحسن مصيراً من المساجد، إذ هُدم البعض منها على غرار زاوية بن رضوان، وزاوية نعمان، وما سلم من الهدم كزاوية التلمساني، فقد ألحقت بفرقة الهندسة العسكرية، ثم أُجرت للأخوات الراهبات، ثم استولى عليها اليهود فاتخذوها بيتاً، ووكراً لإعداد الدسائس، لاسيما وهم متحكمون في دواليب الإدارة والمالية على وجه التخصيص ولعلّ هذا ما جعل دي طوكفيل يقول: «إننا جئنا لإضاءة الشموع فأطفأنا الموجود منها»⁽¹⁾.

ولم يكتفوا بهذا من الأفعال الشنيعة، بل تهادوا في مخططاتهم؛ إذ صادروا أوقاف هذه المؤسسات، وضيّقوا عليها كثيراً؛ لتعطيل عملها، فأحسّ العلماء المدرّسون بالتهميش وضائق عليهم سبل الحياة الكريمة، فهاجر منهم من قدر على ذلك، ومات حسرةً وكمداً من لم تسعفه الحيلة، والخطوة الثانية من مخططهم كانت تقضي بتوفير البدائل التي جاءوا بها، فقد سارعوا إلى إنشاء مكتب، سموه مكتب الشؤون العربية⁽²⁾، وجعلوه تحت قيادة الضباط والمستشرقين، وله أهداف معلنة، وأخرى غير معلنة، منها تعليم عسكر المحتلين اللغة العربية والدارجة؛ حتى يسهل التعامل مع الأهالي، والاهتمام بشؤونهم، وتقريب العلماء، والقضاة الذين لا يمانعون، وتمكينهم من اللغة والثقافة الفرنسيّتين، ليكونوا واسطة بينهم وبين الأهالي، وهم قبل ذلك موضع ثقة وتأثير فيهم، وأمّا أهدافه الخافية فهي أولاً التجسس على المجتمع وحركيته، لمعرفة ما ينوون القيام به، من أعمال جهادية للحيلولة دون تحقيقها، ومعرفة كلّ ما يتعلق بالأهالي من عادات وتقاليدهم⁽³⁾، ومن أجل هذا، عمدوا إلى بعض العلماء والمدرسين والقضاة فقرّبوهم إليهم على غرار المكّي البوطالي، ومحمد بن فتح الله، ومحمد بن الشيخ العباسي، والطاهر بن النقاد ومحمد الشاذلي والمكّي بن باديس ومحمد بن عزوز الذين أصبحوا قضاة. ولم يكتفوا بهذا بل قرّبوا الناقمين على العثمانيين مثل ابن العنتري الذي كان أبوه من مستشاري الباي، الذي قتله بعد

(1) - نفسه، ج3، ص28.

(2) - نفسه، ج3، ص- ص(312 - 313).

(3) - نفسه، ج3، ص293.

وشاية كاذبة أثناء غزو المدينة ومكّونه من اللغة الفرنسية وصار من المدرّسين، وكلف بوحى من الضابط «بواسوني» بتأليف كتاب عن قسنطينة وباياتها⁽¹⁾، وقد اختير هو وجمع من هؤلاء العلماء، في بعثة علمية إلى باريس سنة 1844م ليقفوا على مظاهر الحضارة، والتمدن، التي وصل إليها الفرنسيون خاصة، والأوروبيون عامة، فليس الخبر كالمعاينة، ولعلهم يحسنون الوصف لقومهم إذا رجعوا إليهم، لعلهم ينبهرون، فيصدقون المحتلين في ادعاءاتهم. واستحدثت حلقة (كرسي) اللغة العربية في قسنطينة ابتداء من 1846م⁽²⁾، على غرار حلقة العاصمة، التي بدأ العمل بها سنة 1832م على أيدي كبار المستشرقين، واتخذوا من مدرسة جامع سيدي الأخضر، التي بناها صالح باي، مركزاً لها⁽³⁾ بعد أن اغتصبوها من المسلمين.

ومن مظاهر ضعف التعليم في الجزائر عموماً هو ضعف الزوايا والمعاهد في تأدية رسالتها، حيث أصيب التعليم بالغبن من حيث المناهج والطرق والوسائل والطاقت البشرية، فقد كان التعليم يسير وفق المناهج القديمة المنبثقة عن علوم اللسان والدين وتتلخص طرقه حول تحفيظ القرآن وقراءة وحفظ المتون والنحو والصرف والفقه والتوحيد دون اهتمام بالفهم والاستنباط⁽⁴⁾، وقد أصبح هذا المنهج عقيماً ويضر بالعلوم الحديثة ويتقدم الأمة، في وقت اتجه التعليم نحو المادة، وانعدم النظام البيداغوجي، حيث يرسل السكان أطفالهم إلى الزوايا ليملى عليهم القرآن ويحفظونه ويحضرّون بصورة غير منظمة دون مراعاة لأوقات الدراسة⁽⁵⁾، وقد تولى التدريس معلمون محدودو الثقافة أتوا من كتاتيب واتبعوا طريقة تقليدية وفق مستواهم ونظرتهم التربوية⁽⁶⁾، وكانت نتيجة ذلك التعليم انطوائية المتعلم الذي يتخرج ولا يعرف كيف يُركّب جملة، وإنما قصارى معلوماته أن يكون مستعداً لترشيح الناس له إماماً ولو

(1) - ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان. ط1: 1999م، ص (533 — 537).

(2) - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، ص 312.

(3) - نفسه، ج 3، ص 84.

(4) - ركيبي (عبد الله)، الشعر الديني الجزائري الحديث، الجزائر: م. و. ك، 1981م، ص 30.

(5) - A.N.T: Rapport de Boussaâda et Rapport d'Aumale. : F80-498

(6) - A.N.T : Divers Rapports, F80.1572

كان جاهلاً لشروط الإمامة⁽¹⁾، وكانت نتائج ذلك التعليم النفور والهجرة إلى المدن والضعف اللغوي من طرف أبناء الزوايا أنفسهم.

لقد كرسست فرنسا ذلك الضعف في التعليم سعيًا منها لتهدم دور الطرق المرابطية التعليمي، وأعانت المشائخ واستجابت لكل من يرغب في فتح زاوية وربما أعانته بالمال جزاء قتلهم للعقول وتعطيلهم للمواهب في وقت ناهضت فيه العلماء الناهضين لإصلاح الأمة⁽²⁾، وبذلك تحول المجتمع إلى مزرعة لإقطاع اقتصادي وديني فالأول ينهب الأرض ويعززه الثاني باستنزاف العقول والتهافت على الحشركة الباقية في أبناء الشعب مادياً وأدبياً والجموح في عقله مما يُراد بها وفي غيوبته من الهوية التي تتردى فيها⁽³⁾.

أمّا الخطوة الثالثة فتمثلت في إنشاء مدرسة فرنسية شرعية، أو المدرسة الفقهية⁽⁴⁾ على غرار مدرستي الجزائر وتلمسان، وتهدف جميعاً — في إطار سياسة فصل القضاء والتعليم عن الدين الإسلامي — إلى تخريج قضاة لشؤون الأهالي الشخصية، وتخريج المدرسين والمترجمين وأعوان الإدارة، بعد نضوب في عدد القضاة والفقهاء والمدرسين الناجم عن تعطيل الكثير من المؤسسات الدينية، ومحاولة امتصاص التعليم المسجدي، وتحويل الأنظار عنه إلى هذه المدرسة⁽⁵⁾، وقطع الطريق على الزوايا في الأرياف، التي فرّ إليها طلاب العلم والمتنشرة آنذاك بعدد كبير في كل ربوع الجزائر، فقد بلغ عددها — حسب إحصاء فرنسي — سنة 1851م، 593 زاوية يزاول بها أكثر من 8347 متعلماً⁽⁶⁾، وقد تمّ اختيار المدرسة الكتانية لهذا الغرض، وعيّنت فيها مجموعة من الأساتذة، منهم محمد الشاذلي وعهدت إليه بالإدارة، والمكي بوطالبي ومصطفى بن جلول وأحمد المبارك، واستمر عطاء هؤلاء الأساتذة فيها عقدين من الزمن، ولم تكن المواد العلمية المدرّسة تختلف عن التعليم المسجدي في شيء، فالفقه على المذهب الحنفي والمذهب المالكي وعلوم اللغة وعلوم الدين الأخرى هي التي كانت تدرّس،

(1) - «أساليب التعليم في منطقة زواوة»، الشهاب: ج6، ص5، جويلية 1929م.

(2) - ناصر (محمد)، المقالة الصحفية، ج1، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1978م، ص29.

(3) - الخرفي (صالح)، الشعر الجزائري، الجزائر: ش.و.ن.ت، ب.ت، ص46.

(4) - هذا الاسم أطلقته جريدة المشرق على هذه المدارس. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص367.

(5) - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص127.

(6) - نفسه، 173.

ولكن أضيف إليها اللغة الفرنسية ابتداء من سنة 1863م يدرسها أستاذ فرنسي، والتاريخ والجغرافيا الفرنسيين، والهندسة والحساب، تمّ حذف مادة التوحيد، والجهاد والضرائب، من دروس الفقه، وكان يصعب تصنيفها في بداياتها لوضعها الفوضوي فلم تكن تراعى التلاميذ من حيث السن أو المستوى، ناهيك عن الأساتذة الذين لم يكن يراعى فيهم إلاّ الولاء والشهرة⁽¹⁾.

وابتداءً من سنة 1876م بدأ تنظيمها، ووضعت قيود وشروط للالتحاق بها، حتى لا تحيد عن الهدف المرسوم لها، والمفترض أن تقوم به، منها السنّ بالنسبة للطلبة، إذ حدد بـ19 إلى 25 عاماً، وعلى الطالب أن يمثل أمام لجنة الاختبار وإذا تم قبوله، فللحاكم العام اختيار من يشاء بعد دراسة ملفه دراسة دقيقة، تشمل حتى حالة عائلته الاجتماعية، والسياسية وسيرتهم، وعلاقتهم بالفرنسيين ماضياً وحاضراً، ولم يعد الولاء وحده يكفي للتوظيف فيها أستاذاً، بل أصبح الأستاذ مطالباً بالتوفر على العلم والخبرة، وعليه أن يحظى برضى الحاكم، لأنه هو من صار يعين المفتشين، والمدراء والأساتذة، فقد أعطى قرار 21 نوفمبر 1882م حق المراقبة للولاة في المناطق العسكرية⁽²⁾، ثم جاء قرار 26 جويلية 1883م فوضع إدارة المدارس في يد مدير التعليم، وأما الميزانية فالدولة تكفلها. وأما امتحان الدخول إلى المدارس الثلاث فكان يجري خلال شهر جوان من كل سنة ثم استحدثت دورة ثانية في أكتوبر ابتداءً من سنة 1886م، ويمتحن الطالب في المواد التالية:

(1) إملاء بالعربية مع إعراب في النحو من نص الإملاء نفسه.

(2) شرح نصّ بالعربية في الشريعة الإسلامية.

(3) تدريب على التحرير بالعربية.

(4) اختبار في اللغة الفرنسية قراءة وكتابة مع محادثة شفوية.

(5) أسئلة عن الأعداد العشرية.

(1) - نفسه ج3، ص 368.

(2) - نفسه ج3، ص 379.

وكل هذه الشروط ليست لترقية المدارس الثلاث فحسب، بل لقطع الطريق على طلبة الزوايا الذين كانوا المعين الذي يمد هذه المدارس بقضاة وأئمة ومفتيي المستقبل القريب وما يعضد هذا القول هو تناقص عدد التلاميذ بشكل لافت للنظر، فعلى سبيل الذكر لا الحصر كان معدل التلاميذ في مدرسة تلمسان سنة 1860م 50 تلميذاً، و40 تلميذاً سنة 1882م، و21 تلميذاً سنة 1891م.

ويمكن القول إنّ مستوى التعليم بهذه المدارس أصبح ثانوياً وهذا إلى غاية 1904م، وهذا بفضل نوعية الأساتذة، والمواد التي استحدثت دراستها، فبعد أن قضى معظم جيل الأساتذة الأول، الذي افتتحت به هذه المدرسة، وتعيين الشيخ المجاوي سنة 1877م الذي استطاع أن يملأ الفراغ لوحده، فهو أمة وحده علماً وعملاً، ثمّ التحق به بعض تلامذته المتفوقين ممن أخذوا عنه قبل ذلك في المساجد والمدارس، ثمّ في المدرسة الشرعية من أمثال الشيخ الحبيباتي لأنّ مدة الدراسة بها كانت لا تتجاوز ثلاث سنين، فبقدمه دخلت المدرسة عصرها الذهبي ولم يعرف للشيخ نظير آنذاك.

وفي الإطار نفسه وبعد لجنة (بارو) في سنة 1849م، التي خلصت إلى وجوب — وبشكل استعجالي — تعميم التعليم بين الأهالي، وعدم الاكتفاء بيسط النفوذ بالقوة والقهر تمّ دعماً للمدرسة العربية/الفرنسية — افتتاح المعهد السلطاني (الكوليج الأمبريالي) سنة 1867م⁽¹⁾، متأخراً عن أخيه في العاصمة بعقد من الزمن، ويضمن تعليمًا ابتدائياً تحضيرياً للمتوسط في ثلاث سنوات يتدرّب فيها التلميذ على اللغة الفرنسية، وتختتم بامتحان الانتقال إلى الطور المتوسط، امتحان صعب للغاية في اللغة الفرنسية، أمّا اللغة العربية فهي دارجة، يدرّسها أستاذ فرنسي بمعدل ساعة أسبوعياً، أمّا العربية الفصيحة فتدرس ساعة في كل أسبوع، وعليه فهي لغة أجنبية، ومن غريب أمرهم (الفرنسيين) أن تغلق هذه المعاهد الفرنسية بعد سقوط النظام الملكي، وبالتحديد سنة 1871م في عهدة الحاكم المتعصب ديقيدون، على الرغم من بداية نجاح شهرة هذه المعاهد، فقد نصبت السلطات من الجزائريين من يدعو

(1) - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص 379.

إلى هذا النوع من التعليم ويُغري الأهالي به، ومن نعم الله الجليلة على هذه الأمة أن ينتصب — في تلك الفترة الحرجة — رجال هم بقية من سلفها الصالح للتدريس في المساجد والجوامع والزوايا، لم تثنهم سياسة المحتلين ترغيباً وترهيباً، فابن مهنا، وعاشور الخنقي، ثم حلّ الشيخ عبد القادر المجاوي بالمدينة أعطى دفعاً قوياً للتعليم المسجدي وتخرّج عليه بعد ذلك أغلب المعلمين والمدرسين كالشيخ حمدان الونيسي وابن الموهوب وكحول وباش تارزي والبوعوني، ولحبياتي وغيرهم كثير ممن تنصب مدرّساً ومعلّماً في مساجد قسنطينة وضواحيها، وهذه المجموعة المباركة من العلماء والمدرسين، وكبار أعيان المدينة، تقدمت بعريضة احتجاج في عهدة الحاكم العام الظالم المتعصب تيرمان (L.tirman) سنة 1891م، وقدموها إلى لجنة التحقيق، برئاسة حول فيري، تنوعت مطالبها بين الثقافي والديني والاجتماعي⁽¹⁾.

ولئن لم يهتم حكام المحتلين العامين، وساستهم بتعليم الأهالي عمداً وتجاهلاً، فإنّ الحاكم العام جونار (C. jounart) — في عهديه ولاسيما في الثانية منهما — أعطى التعليم دفعاً قوياً، وشجع عليه وساهم في فتح المدارس الابتدائية والعالية، وجلب لها خيرة الأساتذة، وما الكتانية، والثعالبية، وغيرهما إلا من مآثره، وشجع النوادي والجمعيات العلمية والثقافية على غرار التوفيقية، وصالح باي، وساهم في نشر العلم بطبع كتب العلماء المدرسين كالمجاوي والحفناوي وابن أبي شنب، وغيره، ونشرها على صفحات الجرائد، وترجمة الكتب المفيدة إلى اللغة العربية ونشر الكتب التي تأتي من الخارج تعميماً لنفعها، ومختصر القول: إنّ عهده كانت المنطلق الحقيقي في تعميم تعليم الأهالي، الذي سيزدهر بعد الحرب العالمية الأولى خاصة بظهور المدارس الخاصة التي ضربت جمعية العلماء المسلمين فيها بحظ وافر.

وفي بداية القرن العشرين دخلت الطرق المرابطية مرحلة الضعف، وبدأ تراجعها لا في الجزائر فحسب بل في المغرب العربي ككل وفق الدورة التاريخية، وبرزت الحركة الإصلاحية ليستمر دورها وريادتها حتى سنة 1954م⁽²⁾ ومع الحرب العالمية

(1) - عن ذلك راجع: - فيلاي عبد العزيز، مدينة قسنطينة، الجزائر: دار الهدى، 2007م، ص (100 - 116).

(2) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ص341.

الأولى تجلت مظاهر ضعفها في إعلان بعض زواياها الولاء صراحة لفرنسا، كما عرفت نفس الفترة حدوث تغيرات على الصعيد الدولي⁽¹⁾.

ولوجود هذين التوجهين في بداية القرن العشرين عاش التيار الديني في الجزائر بجناحين: جناح الطرق المرابطية الرافض لكل تجديد حيث سعى للحفاظ على مكانته وامتيازاته⁽²⁾، ودخلت الكثير من زواياها في ركاب الاستعمار، وكانت غايته هو المحافظة على نفوذ الزوايا والطرق وعلى شهرتها وسمعتها ومكانتها. وجناح الحركة الإصلاحية الذي كان يحمل ثورة فكرية على الجمود والبدع والخضوع والتجنيس والاندماج، وعلى هذا الأساس عمل الاستعمار الفرنسي على عرقلته والتشويش عليه وتحالف مع الجناح الطرقي واستعمله وسيلة لمواجهة كل مد إصلاحية أو استقلالية يعرقل وجوده⁽³⁾.

إن هذا الواقع أفرز صراعاً بين الإصلاحيين والطرقيين لا على مستوى الجزائر فحسب بل على مستوى المغرب العربي ككل ولكنه في الجزائر كان أكثر وضوحاً، الأمر الذي جعل الكثير يصفون جمعية العلماء المسلمين بالتقاعس عن مواجهة الاستعمار مقارنة باشتغالها بالطرقية وبدعها⁽⁴⁾ بانتقادها للطرق المرابطية وانحرافاتها، تخللتها حالات من التوتر والانتقاد الحاد عبر صحافة الإصلاحيين، وعبر الجناح الذي يمثل صحافة الطرقيين فالإصلاحيون كانوا ينعتون الطرقيين بالمشعوذين والموالين للاستعمار، والطرقيون ينعتون خصومهم بالوهابيين والعبوديين.

كما أسهم خريجو الزيتونة إسهاماً كبيراً في محاربة الطرق المرابطية، وكانوا عماد جمعية العلماء مع أفاضل آخرين مثل: البشير الإبراهيمي وعبد الحميد بن باديس ومحمد السعيد الزاهري، كما ساهم تلاميذ الخلدونية والعائدين من القرويين وبعض أبناء الزوايا الرحمانية نفسها في نبذ تلك السلوكات وإرساء قواعد جمعية العلماء، ولم يكتف

(1) - أبو بكر الصديق حميدي: قضايا المغرب العربي في اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية 1920 - 1954م، م أ د، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة الجزائر، 2010 - 2011م، ص 206.

(2) - البصائر: عدد 08، السنة 2، 22 ذي القعدة 1357هـ، 13 جانفي 1939م، ص 02.

(3) - A.C.M.M: G.G.A، Bulletin Mensuel de la presse indigène d'Algérie، Octobre، 1938،

B 155، P9

(4) - أبو بكر الصديق حميدي: المرجع السابق، ص 208.

هؤلاء بالتنديد بهذه الطرق المرابطية، لكننا نراهم يوسعون نشاطهم إلى نشر العلم الذي كان وسيلتهم الرادعة للحد من توسع الطريقة، متخذين مختلف أنماط التعبير، والذي ملأ صفحات الصحافة التونسية وصحافة جمعية العلماء بعد العشرينيات⁽¹⁾، وعليه فإن ذلك الصراع يدخل في إطار الدورة التاريخية، فعندما سيطرت الطرق المرابطية أثناء القرن 19م وصلت إلى مرحلة لتحل محلها الحركة الإصلاحية⁽²⁾ وفي ظل ذلك الحراك الاجتماعي كان الزوال للأضعف والبقاء للأصلح أمراً محتوماً.

2. نشأة وتكوين الشيخ أحمد لحبيباتي «1867 - 1888».

إن من أبرز العلماء والمثقفين الذين عملوا على إحداث انبعاث ثقافي في الجزائر الكولونيالية خلال الحقبة الزمنية الممتدة من بُعيد الاحتلال الفرنسي للجزائر، وإلى غاية اندلاع الحرب العالمية الأولى، حقبة ليست أحداثها والتي تخفى على ذي بصيرة، هو الشيخ أحمد بن مرازقة لحبيباتي مولداً وقسنطينة إقامة وإقباراً. والذي يُعدُّ من بين أكبر الشخصيات الجزائرية المؤثرة في تاريخ الجزائر العلمي والثقافي والإصلاحي وخصوصاً خلال هذه الفترة حيث كان للشيخ فيها عظيم البلاء، أين ساهم بقوة في مشروع إحياء الأمة التي يُراد لها الموت المادي والمعنوي.

أ. اسمه ومولده:

هو الشيخ الصوفي والفقير المالكي العارف بالله الحجة القدوة سيدي أحمد بن محمد مرازقة بن الإمام الفقيه السعيد لحبيباتي، ووالدته من عائلة زوجها وهي مسعودة مرازقة. ولد بجمعة بني حبيبي سنة (1867م-1284هـ) وبها نشأ وتعلم.

ب. تحليته:

سيدي أحمد لحبيباتي، أبا الطاهر، شيخ النساك والعباد، قطب رحي الزهد والورع، حجة الله على علماء عصره، عالم الديار القسنطينية، كعبة الرواد والسالكين، من مشاهير علماء قسنطينة وفقهائها الأفاضل.

(1) - الجابري (محمد الصالح)، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، تونس: الدار العربية للكتاب، 1983م، ص 63.

(2) - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 4، ص 127.

ج. أصله ونسبه:

أهله من الجمعة بني حبيسي قرب الشقفة، بلدية الطاهير ولاية جيجل في التقسيم الإداري للجزائر المستقلة⁽¹⁾، وينتمي إلى قبائل الحدره الشهيرة، وكانوا من داعمي العمل الإصلاحية في القطاع القسنطيني كله: «إخواننا رجال قبائل الحدره وعاصمتهم قسنطينة وأكثريتهم من حاملي لواء الإصلاح»⁽²⁾، ومنطقة الجمعة بني حبيسي هي جزء من امتداد جغرافي ذو أصل واحد يسمى بقبائل الحدره أو القبائل الصغرى، يمتد من واد بوغريون في خليج بجاية إلى منطقة رأس العشائش غرب القل.

وتتشكل الجمعة بني حبيسي بحسب ما ورد في مقال «انتصار الإصلاح» لعلي مرحوم بن أحمد المسلمي⁽³⁾: «من عدة أعراش وبطون منهم: أولاد العابد وهي طائفة لا تخلوا من عاقل فإن لها اليوم ابناً بجامع الزيتونة (فرحات العابد)... ومنهم الدراوشة... زعيمها الذي يقود زمامها (خلال هذه الفترة) فهو الذي يُدعى الشيخ عمر بن فيالة القائم اليوم بقرية بني حبيسي....»⁽⁴⁾، وكتب عن تاريخ قبائلها أيضاً الشيخ المبارك الملي عقب زيارته لها⁽⁵⁾.

ومسقط رأسه الجمعة بني حبيسي اسمها مركب من العبارتين الجمعة- وبني حبيسي، أما الجمعة بفتح الجيم فهو في الحقيقة يوم الجمعة وقد اقترن هذا اليوم بهذه المنطقة نسبةً إلى السوق التي كانت تُقام بها في هذا اليوم من كل أسبوع، حيث يلتقي سكان المناطق الأخرى بالسكان المحليين يبيعون ويتاعون ويتبادلون المنتجات الفلاحية والنسيجية وغيرهما، كما أن هذا الملتقى كان عبارة عن فرصة للتعارف وتبادل الأخبار، وأما عن الشطر الثاني «بني حبيسي» فهو اسم التجمع القبلي الذي عاش في هذه المنطقة من القرون الوسطى⁽⁶⁾.

- (1) - حماني (أحمد)، صراع بين السنة والبدعة، ج1، قسنطينة: دار البعث، 1984م، ص377.
- (2) - ثابت، أعداء الإصلاح في قسنطينة، جريدة الشهاب، ج6، مج-12 5 جمادى الأولى والآخرة 1355/أوت وسبتمبر -1936 ص (286-287).
- (3) - نائب كاتب شعبة جمعية العلماء المسلمين بالأجنح، وقد زارها في 19 جوان 1936م.
- (4) - البصائر، ع31، 19 جمادى الأولى 1355هـ-7 أوت 1936م، ص6
- (5) - انتصار الإصلاح ببلاد القبائل الحدراء، البصائر، ع29، السنة الأولى، 05 جمادى الأولى 1355هـ، 24 جويلية 1936م، ص6.
- (6) - مبارك الملي، تفقد الشعب، البصائر، ع31، السنة الأولى، 19 جمادى الأولى 1355هـ، 07 أوت 1936م، ص5.

تقع قبيلة بني حبيبي شرق مدينة جيغل بحوالي 40 كم. تبدأ أراضيها من الضفة اليسرى للوادي الكبير المنحدر من قسنطينة، وتأخذ في الارتفاع إلى القرب من جبل سدات. مساحة أراضيها 7491 هكتاراً، يحدها من الشمال عرشي بني بلعيد، الجناح وبني صالح، ومن الغرب بني يدر وبني معمر، ومن الجنوب بني عيشة، بني فتح وبني يدر، ومن الشرق تايلماس وبني مسلم. أعيان القبيلة يقولون أن أصلهم من المغرب، ويبدو أن سكان بني حبيبي من فروع قبيلة كتامة البربرية، اختلطوا شيئاً فشيئاً بالعرب بعد القرن الثاني عشر الميلادي عندما قدم الموحدون المغاربة لتحرير مدينة جيغل عام 1153م، فاستقر معهم عدد من الفقهاء لغرض التعليم.

وهي حالياً بلدية تابعة إقليمياً إلى دائرة العنصر ولاية جيغل. تقع في الشمال الشرقي للولاية، يحدها من الشمال كل من بلديتي سيدي عبد العزيز وواد عجول، من الشرق بلدية العنصر، من الجنوب بوراوي بلهادف ومن الغرب برج الطهر، ومن مشاتها: القعدة (الزاوية) مركز البلدية، بني معزوز، تيسيلان، الطيانة، أولاد فاتح أولاد معقل، حيان، الحوش، تامزرار، بوعامر، محسن⁽¹⁾.

وحسب ما جاء في مقال «المسلمي» السابق فإن جمعة بين حبيبي: «ومن حيث قوة الطرقية والمرابطة تفوق الشقفة لأن أهل الشقفة مقدم يعملون لفائدة غيرهم من أصحاب الزوايا الكبرى، أما أهل سوق الجمعة فيعملون لأنفسهم، ولكن وجدنا الناس في الجمعة أيسر إقبالاً.

وأشهر المرابطين الذين يتحكمون في القبائل المحيطة بجمعة بني حبيبي هم أولاد العابد، وضريح جدهم قريباً جداً من الجمعة، وهناك رجل يشار إليه بالعلم والشرف يسمى الشيخ عمر بن فيالة وحده كان قائد الثوار من تلحم الجبال في سنة إحدى وسبعين ميلادية ونزل على ميعة وكانوا ينهبون أموال المسلمين ويستخرجون دفاتنهم من حبوب وإدام ودراهم، وأغلب هؤلاء ومن انظم إليهم من صغار المرابطين يجمعون على حرب جمعية العلماء بسلام الكذب الذي سهله عليهم ثقة العامة بهم»⁽²⁾.

(1) - <http://afalaz.wordpress.com>

(2) - مبارك الملي، تفقد الشعب، البصائر، ع31، السنة الأولى، 19 جمادى الأولى 1355هـ، 07 أوت 1936م، ص8.

أما عن الفترة التاريخية التي عاش فيها مترجمنا فقد عاصر حقبة صعبة على سكان بني حبيبي وهي حقبة بدايات الاحتلال الفرنسي للمنطقة، فقد أبدى سكانها بسالة منقطعة النظير ولم يستسلموا للفرنسيين إلا بعد حملات 1851، 1852م، فبعد احتلال مدينة جيجل سنة 1839م، أراد المستعمر الفرنسي بسط سيطرته على كل القبائل والأعراش المحيطة، فكانت له محاولات كثيرة يقوم خلالها بخرجات عسكرية نحو القبائل انطلاقاً من مدينة جيجل، لكن في كل مرة ينال منه الفشل ويعود إلى المدينة حيث يتحصّن، واستمر الوضع على هذا الحال حتى شهر ماي 1851م. أين خرج الجنرال «سانت آرنو» من مدينة ميله بجيش كبير قاصداً مناطق الشمال القسنطيني حيث تقطن القبائل التي لم يتم بعد إخضاعها سالكا الطريق المارة عبر بني خطاب، أولاد عسكر، بني عيشة، بني فتح وبني حبيبي ومن ثم نحو مدينة جيجل. وما إن سمعت القبائل بانطلاق حملة الجنرال «سانت آرنو» حتى سارعت إلى لم شملها وإعداد المقاومين لسد الطريق عليه، وبالفعل تم التنسيق بين القبائل وإعداد جيش من المقاومين قوامه أكثر من 4000 مقاتل. فما إن دخل الجنرال «سانت آرنو» أراضي القبائل حتى انقضت عليه فرق من المقاومين في معركة شرسة دامت نهاراً كاملاً، تكبد خلالها المستعمر بعض الخسائر ما عطل سير الحملة فلجأ الجنرال إلى قانون الأرض المحروقة وبدأ في عملياته البربرية من تقتيل ونهب وحرق وتخريب ضد سكان كل من بني عيشة، وبني حبيبي وتايلمام، وقد بلغ عدد الضحايا في هذه المجازر أكثر من 400 قتيل و1000 جريح أغلبهم من الصبيان والعجائز الذين لا يستطيعون الفرار، وبهذا تكون بني حبيبي قد رفعت راية الخضوع للمستعمر، وتم بعد ذلك تنصيب الإداريين والقياد والقضاة وبدأ عصر سلطة جديدة دامت طويلاً. وفي عام 1860م قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية بإنشاء المكتب العربي بالميلية لتسيير شؤون قبائل المنطقة أولاد عيدون، مشاط، بني تليلان، بني خطاب وأولاد عواط وغيرهم، وأنشأت برج الميلية الذي تولت حراسته فرقة عسكرية فرنسية بمساعدة مجنّدين جزائريين⁽¹⁾.

(1) - من الموقع الإلكتروني: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

وللعلم فإن الكثير من أعراش بني حبيبي قد دعمت ثورة الشيخ عزيز بن الشيخ الحداد خاصة في المعركة التي قادها ضد شيوخ قبيلة بني فوغال من عائلة بن حبيلس، أين فر الكثير من الشيوخ والقياد الموالين للمستعمر ولجئوا إلى مدينة جيجل للاحتماء بالقوات العسكرية الاستعمارية المتواجدة هناك. كما استقر بها إبان الثورة بعض مساعدي الشيخ عزيز منهم القريشي بن سيدي سعدون وعمر بن أمقران في جوان 1871م وكانت إقامتهم بزاوية سيدي وارث في بني حبيبي والتقوا بشيخها محمد بن فيالة، وهو أحد مقدمي الرحمانيين النافذين، وهناك كانت الفرصة مواتية للالتقاء بمعظم المتحمسين من سكان قبائل ضفتي واد الكبير الذين شاركوا في حصار برج الميلية في فيفري 1871م، وعلى رأسهم قبيلة أولاد عيدون وأقرانها الذين تم نزع أسلحتهم والتنكيل بهم من طرف المستعمر.

د. نشأته التعليمية:

• في مسقط رأسه:

كان أول تعليمه القرآني بمسقط رأسه (الطاهير)، قال عنه الشيخ الشريف الصايغي: «ابتدأ رحمه الله تعالى وعمره ثمانية أعوام (1875م) تعلم القرآن الكريم بمسقط رأسه الطاهير»⁽¹⁾، ثم انتقل إلى دار البركة (زاوية) الشيخ بني حافظ، وفيها أتم حفظ القرآن الكريم وعمره اثني عشرة عاماً (1879م)، «ولما برع وترعرع، ولبس حلة النجابة، انتقل إلى قسنطينة في طلب العلم فكان من السابقين في رياض دروس الأستاذين الإمامين الشيخ عبد القادر المجاوي والشيخ حمدان الونيسي رحمهما الله فزهت زهرته وغت شجرته وكان في حلقة دروسهما مفرداً لا يثنى، وقد نال منهما ما يتمنى»⁽²⁾.

وبعد حفظ القرآن في تلك السن المبكرة على يد مشايخ وعلماء منطقته، تلقى أولى مبادئ اللغة العربية وعلوم الفقه وأصوله بالزاوية العيساوية ومجموعة من مساجد المنطقة، وكان له الفضل في تكوينه يعود إلى مجموعة من شيوخ الطاهير. ومما لا شك فيه أن رغبة أحمد مرازقة القوية في الاستزادة من العلم، بعد أن تيسر له أخذ مبادئه،

1 - النجاح ع 1974، 15 محرم 1356هـ - 28 مارس 1937م

2 - نفسه. راجع حماني، صراع بين السنة، ج 1، ص 377.

عن علماء ومشايخ أجلة اهتموا به وأولوه رعاية خاصة - لاسيما وهو ابن الشيخ العالم - لما لمسوه فيه من مخايل الفطنة، والذكاء وعلو الهمة، كانت الدافع القوي الذي جعله يدق أبواب قسنطينة، حيث الأساتذة العلماء الذين يملأ صيتهم الآفاق ففتحت له هذه المدينة الأبواب واحتضنه أساتذتها.

وعلى الرغم من أن الفترة التي انتسب فيها الشيخ إلى مساجد قسنطينة جاءت في مرحلة لم تكن فيها مواد الدراسة محددة، ولا حتى الكتب التي يجب أن تدرس، إلا أن حرص الشيخ ومواهبه الفطرية وصبره على التحصيل جعلته مثالا للطالب المجتهد الذي لا يكل ولا يمل ولا يفتر، حتى تضلع من علوم مختلفة على غرار علوم اللغة والفقه وعلم التفسير والمنطق وأصول الدين، فبلغ شأواً أقرانه بل وزاد عليهم فنوناً.

• في قسنطينة:

وفي مدينة قسنطينة أخذ العلم في عدة زوايا تقوم بتعليم القرآن، والدروس العلمية، والصلوات المكتوبة، قبل أن ينتظم في دروس الجامع الكبير بحضرة العالمين الجليلين حمدان الونيسي، وعبد القادر المجاوي، من هذه الزوايا:

زاوية الفقون التيجانية:

هي الموجودة اليوم بحي الخرازين، وتُعرف أيضاً بالزاوية التجانية الفوقانية، تميزاً لها من زاوية بن نعمون المذكورة بالشط. وبزاوية الفقون قبر العلامة الشيخ عبد الكريم الفقون من مشاهير علماء القرن العاشر الهجري⁽¹⁾.

❖ زاوية ابن نعمون التيجانية:

وهي المعروفة اليوم باسم الزاوية التجانية في الشط. وتقام فيها الصلوات الخمس، والجمعة، والدروس العلمية. وبها مدافن آل بن نعمون الذين هم من سلالة بايات المدينة. وتقع على نهج السويقة (نهج ملاح سليمان) عند رقم 76، وبها قبر المرحومين محمد الشريف بن نعمون، وموني، وهما من آل بن نعمون، ودفنا بالزاوية بقرارين

(1) - محمد المهدي بن شعيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر تاريخ قسنطينة، الجزائر، دار البعث، 1980م، ص 480

بلديين مؤرخ أحدهما (الخاص بدفن موني) في 12 سبتمبر 1847م والثاني في 11 جانفي سنة 1849م، وهي باقية بموضعها المذكور إلى اليوم.⁽¹⁾

❖ جامع سيدي عبد المؤمن:

وفي هذا الجامع كان لقاءه الأول بشيخ الجماعة المجاوي، موقعه بنهج ملاح السعيد (بريقو) بحي السويقة (الحي العربي العتيق)، وهو من أقدم مساجد المدينة، وكان يعرف باسم (زاوية القادرية)، تقام فيه الصلوات الخمس وتعليم القرآن للصغار والدروس للكبار. وتاريخ نشأته مجهول. وكان العلامة الشيخ عبد القادر المجاوي يلقي فيه الدروس، وبعده العلامة الشيخ الصالح بن العابد، وغيرهما من علماء المدينة⁽²⁾، وفي عهد الأحبيباتي كانت الزاوية تتكون من طابقين رئيسين طابق أرضي وآخر علوي يقع المدخل الرئيسي في الناحية الغربية للزاوية⁽³⁾ ومن أئمة سي المختار بن محمد رمضان من طرف عائلة سيدي مالك، وكان عدد المصلين به 17، وعدد تلاميذه 12⁽⁴⁾.

❖ مسجد عيساوة:

الكائن بـ 17 نهج الزواف أمامه حمو بلغول، وكان مصاناً من الدولة عدد مصلية أيام تلقي الشيخ لحبيباتي 400، وطلبتة 18⁽⁵⁾. وبهذا المسجد شرع في تعلم علوم القرآن الكريم، جرياً على عادة أسلافه من المقرئين الذين كانوا لا يأذنون في تعليم القرآن إلا لمن توفرت فيه شروط تعليمه، ولا يتصدّر عندهم لتعليم القرآن إلا من كان متقناً لأحكام رسم المصحف العثماني ومصطلحاته المعروفة لدى أئمة القرآن، ولا سيما قراءة الإمام الذي يريد المعلم الاقتصار على الأخذ بها برواية رواته وطرقهم وما درجوا عليه في النطق بكلمات القرآن وحروفه ومعرفة مخارج الحروف، وصفات هذه الحروف عندهم، كالترقيق، والتفخيم، والإخفاء، والإظهار، والإدغام،

(1) - نفسه، 478.

(2) - محمد المهدي بن شعيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، ص 234.

(3) - كمال غربي، مساجد، ص 170.

(4) - زوزو، نصوص، ص 257.

(5) - نفسه، ص 256.

والغنة والقلب، والهمز، والإبدال والتسهيل والإمالة، والثبوت والحذف إلخ. وعلى هذا الأساس أذنوا لتلميذهم — أحمد مرازقة بتعليم القرآن.

❖ الجامع الكبير :

هو الجامع المعروف اليوم بهذا الاسم: (الجامع الكبير) الموجود ببطحاء السوقية، بشارع بن مهدي، على يمين المتوجّه نحو القنطرة القديمة، الواصلة بين المدينة ومحطة السكة الحديدية وحي الأمير عبد القادر، وهو أقدم مساجد المدينة، حسبما دلّت عليه كتابة عربية بخط كوفي كانت حول المحراب، ولا نعلم هل هي دالة على إتمام بنائه، أو إصلاحه وتحديد محرابه فقط. ونص تلك الكتابة هو: (هذا من عمل محمد بوعلي البغدادي في عام 350هـ — الموافق 1136م). وعلى هذا قد يكون من منشآت دولة الموحدّين الزناتية، أو دولة بني حماد الصنهاجية؛ لأن التاريخ المذكور يوافق أيام حكم الدولة الصنهاجية بقسنطينة وبعض أجزاء البلاد التونسية وبجاية وعلى وجه التحقيق أيام الأمير علي بن يحيى بن تميم المعز بن باديس، بعد انقسام مملكتهم، ثم استيلاء عبد المؤمن بن علي الموحدّي عليها في منتصف القرن السادس الهجري (555 هـ — 1160م). وذكر جورج مارسبي في كتابه (تاريخ الفن المعماري الإسلامي) أن تاريخ الجامع الكبير مجهول، وأن هذا المسجد كان موجوداً في القرن السادس الهجري، حسبما دلّت عليه كتابة عربية أخرى عثر عليها أثناء عمليات الهدم الذي أحدثته السلطة الفرنسية لعدة أطراف منه لفتح الطرق الموجودة أمامه وحوله⁽¹⁾.

وفي السنوات العشر التي تلت دخول الفرنسيين لمدينة قسنطينة كان بالجامع الكبير أربعة عشر موظفاً منهم أئمة، ومؤذنون، وقِيّمون، وحرّاس، ومدرّسون، وقرّاء حزب، وأهل إفتاء، فضلاً عن المتطوّعين بالتدريس. وجدّد الفرنسيون المنارة والميضأة بتمامهما، كما جدّدوا مقدّمة الجامع من جهة باب المدخل الكبير المؤدي إلى شارع بن مهدي⁽²⁾.

(1) - محمد المهدي بن شعيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، ص221

(2) - نفسه، ص223.

ومن العلماء الذين سبق لهم التدريس في هذا المسجد، السادة المشايخ: المكي البوطالي المدفون بفناء المدرسة الكتّانية — مدرسة صالح باي، ملصقاً قبره لحائط مقبرة الباي المذكور وأعضاء عائلته. ومنهم أي المشايخ الذين كانوا يدرسون بالجامع الكبير —: الشيخ محمد بن عيسى الشاذلي البوزيدي الذي تولى فيما بعد إدارة مدرسة قسنطينة. ومنهم الشيخ عبد القادر المجاوي، الذي يعتبر بحق أبا النهضة الثقافية العربية في هذه البلاد قبل ظهور الشيخ بن باديس وجمعية العلماء⁽¹⁾. كما كان يحضر دروساً عامة بـ:

❖ الجامع الأخضر

هذا المسجد من مساجد العهد التركي أيضاً، بناه الباي حسن بن حسين الملقب «أبو حنك» الذي تولى حكم قسنطينة حوالي سنة (1150هـ — 1737م) إلى عام 1168هـ — 1754م. وتمّ بناء المسجد في عام 1157هـ — 1743م كما تدل عليه كتابة الرخامة المثبتة فوق باب المدخل لبيت الصلاة، وبجوار المسجد المدرسة التي بناها صالح باي في شهر ذي الحجة من عام 1193هـ — 1775م، وبفنائها مقبرة الباي حسن وأفراد عائلته. وكان يقوم بالتدريس فيه نحو ثمانية من المدرسين⁽²⁾.

والجامع الأخضر يسمى بالجامع الأعظم، أخذ شهرته التي عمّت الآفاق في الجزائر وغيرها، وذلك في عهد أبو النهضة الجزائرية الحديثة فقيده العروبة والإسلام الشيخ عبد الحميد ابن باديس.. الذي قام بتدريس تفسير القرآن الكريم لطلبته مدة 25 سنة⁽³⁾. وكانت من دروسه أيضاً: القوانين الفقهية لابن جزي الأندلسي، ومفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول للشريف التلمساني، وكتاب الأمالي لأبي علي القالي، وتفسير سورة النحل والإسراء والكهف هذه هي الدروس الأساسية ويزاد عليها حسب رغبة الطلاب⁽⁴⁾.

(1) - نفسه، ص 228.

(2) - نفسه، ص - ص (466 - 467).

(3) - راجع: - النجاح، الثلاثاء 27 أكتوبر 1925م. للتوسع يراجع: - الشهاب، ج 4، مع 14، ربيع الثاني - جمادى الأولى 1357هـ / جوان - جويلية 1938م

(4) - الشهاب، ج 9، 1929م، ص 48. للتوسع يراجع: - سليمان الصيد، نفع الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، الجزائر: المطبعة الجزائرية، 1994م، ص (196 - 199).

❖ جامع سيدي الكتّاني:

أنشأه صالح باي بن مصطفى في عام 1190هـ - 1776م، نسبةً إلى ولي مدفون بتلك البقعة، ولم يعرف بالضبط مكان دفنه، كما أنشأ في ذي الحجة من عام 1193هـ - 1779م مدرسة الجامع الأخضر الملاصقة للجامع المذكور، أي الجامع الأخضر في سنة 1156هـ - 1743م.

أما جامع سيدي الكتّاني فقد جلب له صالح باي دعائمه الرخامية وأهمّ مواد بنائه وزينته المعمارية من إيطاليا. وأنفق عليه وعلى المدرستين أموالاً طائلة، وأوقف لهما وللمسجد أوقافاً عظيمة عقارية من خالص ماله يصرف دخلها على المؤسسات المذكورة⁽¹⁾. ولما زار نابليون الثالث مدينة قسنطينة في عام 1281هـ - 1864م أمر بإدخال إصلاحات على جامع سيدي الكتّاني بالدائرة العليا فوق الباب الخارجي الشرقي وعلى الواجهة الشرقية من حائط المدرسة. كان إمامها حينها حاج سعيد بن بشتارزي، وعدد المصلين به عادةً 500 مصلّى أوقفه 114 ملك، وله إيرادات تتجاوز 1800 فرنك⁽²⁾.

وتقع هذه المدرسة في حي سوق العصر الذي سُمّي بعد الاستقلال: ساحة بوهايلي السعيد. أما دار صالح باي فهي باقية إلى الآن بجانب المسجد تحت الساباط المحاذي للجامع من جهة اليمين — بالنسبة ليمين المواجه للمحراب. ويلي المدرسة الكتّانية من جهة الشمال دار أخرى مقر قصر العدلية الفرنسية، اشتراها اليهود وجعلوها مقراً لمحكمتهم الرّبيّة، ومقرّاً لجمعيتهم الدينية. وبعد الاستقلال حوّلت هذه الدار إلى مدرسة تكميلية تابعة للمدرسة الكتّانية⁽³⁾.

وفي عام 1304هـ الموافق لسنة 1886م، كانت مدرسة الشيخ عبد القادر المجاوي الحرة قد اشتهرت في قسنطينة وانتشر خبر مؤسسها وذاعت سمعته لما أظهره الله على يديه من الفتح والنفع، فدخل الشيخ لحبيباتي فيها ولازم دروس مؤسسها

1 - محمد الهادي شعيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، ص 228.

2 - زوزو، نصوص، ص 253.

3 - نفسه، ص (230 - 231).

نحو سنتين، وتخصّص في العلوم الشرعية والعربية وإجازة شيخه وأذن له في التدريس والوعظ، وهذا قبيل انتقال أستاذه إلى الجزائر. ولما انتقل الشيخ عبد القادر المجاوي من قسنطينة إلى العاصمة للتدريس بالمدرسة الثعالبية، خلفه في مبادئه العلمية والدينية بعض نجباء تلامذته وخاصة المشائخ:

- الشيخ حمدان الونيسي، الذي هاجر إلى المشرق وتوفي بالمدينة المنورة في 27 رمضان عام 1339هـ الموافق لسنة 1920م وعمره 64 سنة.

- المولود بن الموهوب.

ويتبين مما تقدم إن الوسط الذي عاش فيه لحبيباتي ونوعية الدروس التي انكب عليها بالإضافة إلى استعداداته الفطرية وتأثره بالوضع الذي كانت تعيشه بلاده والذي ازداد سوءاً في ظل السيطرة الفعلية للمعمرين كل هذه الأمور أدّت دوراً في توجيهه ووسائله في ميدان العمل الإصلاحي.

هـ. شيوخه:

من خلال ما مرّ معنا من تتبع لمساره التعليمي في كل أطوار حياته إلى أن استقر به المقام في قسنطينة نجد أن أحمد مرازقة لحبيباتي قد تلقى العلم على طائفة كبيرة من علماء عصره ممن اشتهروا بنبوغهم وعلو كعبهم في مختلف أنواع العلوم والمعارف. فممن تشرف بالقراءة عليهم أو الإجازة منهم مجموعة كبيرة من العلماء والمشايع منهم:

• الشيخ عبد القادر المجاوي «1848 - 1913م»:

هو عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمان بن عيسى بن داود بن أبي حناش بن خمليش بن علي بن محمد بن عبد الجليل الحسني، الملقب بالمجاوي نسبة إلى قبيلة مجاوة التي تقطن بالقرب من مدينة تازة بالمغرب الأقصى، وقد استوطن جده بتلمسان وعمل ناسجاً بها، ولد المجاوي بتلمسان في أسرة اشتهرت بالمكانة العلمية كان والده محمد بن عبد الكريم قاضياً في تلمسان نحو 25 سنة⁽¹⁾. بعد الدراسة في مسقط رأسه انتقل لمتابعتها في كل من تطوان وطنجة بالمغرب الأقصى⁽²⁾،

(1) - الحفناوي أبو القاسم : تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة فونتانة الشرقية، الجزائر. 1967، ص 446.

(2) - دبور محمد علي : نخضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع 2013، ص 85 .

ثم التحق بالقرويين لمتابعة دراسته ودرس الفقه وأصوله والفرائض والتفسير، الحديث الشريف واصطلاحه المنطق وعلوم البلاغة، والتصوف بالإضافة إلى علم المنطق والحساب والفلك والتاريخ والأدب⁽¹⁾.

فيما يخص نشاطه الإصلاحي فنجد جهوده العلمية والإصلاحية قد تبلورت في عدة ميادين وهي التربية والتعليم والصحافة والتأليف، ونتيجة لنشاطه المكثف عرضت عليه الإدارة الفرنسية العمل كإمام بجامع سيدي الكتاني حتى يكون تحت نظرها وقبل بهذا المنصب، كما عمل أيضاً كمدرس بالمدرسة الثعالبية وفي سنة 1878م درس بها مختلف العلوم كتحفيظ القرآن، الحديث، الفقه، المنطق، الأدب، علم الفلك والحساب⁽²⁾، وفي حدود سنة 1898م عينته الإدارة الفرنسية في المدرسة الثعالبية والهدف من ذلك وضعه تحت رقابتها المباشرة بالعاصمة. لقد واصل المجاوي نشاطه بالعاصمة وساهم في تدعيم الجو الثقافي بها إلى جانب كوكبة من الأساتذة⁽³⁾، كما أثر على الحياة الثقافية عن طريق المؤسسات والنوادي والجمعيات، كما ساهم المجاوي في الحركة الصحفية حيث ساهم في كل من المنتخب، جريدة المغرب 1903، شارك في كوكب إفريقيا في الفترة ما بين (1908-1909)م. وتعتبر أفكار الشيخ المجاوي بمثابة اللبنة الأولى للنهضة الإصلاحية في الجزائر.. وخلف المجاوي عدداً كبيراً من التلاميذ حملوا فكره وساروا على دربه، واتخذوا من منهجه مناراً يهدون به في جهادهم الوطني من أمثال العالم المحقق أحمد بن مرزوق لحبيباتي⁽⁴⁾ الذي كان من أبرز تلاميذه، وكان له فضل الاتصاف بصفاته، وحمل أفكاره وعلومه الغزيرة⁽⁵⁾.

(1) - دبور محمد علي : المرجع نفسه، ص87.

(2) - دبور محمد علي، أعلام الإصلاح في الجزائر (1921-1975)، ط1، ج3، مطبعة البعث، قسنطينة، 1978، ص60.

(3) - المجاوي عبد القادر، اللمع على نظم البدع، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1912، ص30. - للتوسع في ترجمته راجع: - أبو عمران الشيخ وسعيدوني ناصر الدين، معجم مشاهير المغاربة، الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة، ب.ت، ص(473 - 475). - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، ص163. - بن أبي شنب (سعد الدين)، «النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن (14هـ)»، مجلة كلية الآداب، ع1 الجزائر: 1968م، ص51. - كحول (محمود)، التقويم الجزائري، السنة الثانية، الجزائر: مطبعة فونتانة، 1911م، ص5.

(4) - فيلاي، المرجع السابق، ص190.

(5) - غربي كمال، المساجد والزوايا، ص105. - راجع، - حماني، صراع بين السنة والبدعة، ج1، ص377.

• الونيسي (حمدان بن أحمد) «ت1338هـ-1920م»

هو العلامة المحقق المحدث سيدي الشيخ حمدان ابن السيد أحمد الجزائري القسنطيني، من علماء الجزائر المشهورين، تلقى العلم عن أسياف بلده أجلمهم شيخه المشهور بالمغرب أبو النهضة الجزائرية الحديثة (الشيخ عبد القادر المجاوي «1848م - 1913م») كما أجازته كثير من أعيان المشاركة. هاجر إلى الحجاز عام 1908م وكان يدرس بالمسجد النبوي، ومن أعلام علماء الحديث والمذهب المالكي، أثنى عليه علماء المدينة ومنهم الشيخ محمد الحافظ.⁽¹⁾ لازمه لحبيباتي كثيراً، وقرأ عليه تفسير الجلالين وألفية ابن مالك بشرح ابن عقيل مع حاشية الخصري وحصل له منه فوائد جمة. كما تلقى على يديه أحمد مرازقة علوم العربية والفقه والحديث، وقد أجازته إجازة عامة وخاصة في «الصّحاح الست»، و«الموطأ» وكتب الفقه⁽²⁾.

• صالح بن مهنا الأزهري «1854 - 1910م».

عالم سلفي، من رواد الحركة الإصلاحية الذين حاربوا البدع، ولد في قرية العشرة كركرة من نواحي القل ونشأ بقسنطينة وتعلم بها وبتونس، ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم بالأزهر وعاد فاشتغل بالتدريس في قسنطينة، من آثاره (تنبيه المغتربين في الرد على الشياطين) رد فيها على رسالة (ضوء الشمس) لأحمد بن دادا التي وضعها في مدح الأشراف، وقد أثار كتاب بن مهنا ضجة بين العلماء في وقته، فرد عليه عيسى أبو مهدي بن محمد العمراني الوازاني برسالة سماها (السياف المسلول باليد اليمنى في الرد على بن مهنا) ورد بن مهنا عليه برسالة سماها: (الفتح الرباني في الرد على المهدي المغربي الوازاني) مات بقسنطينة⁽³⁾. فقد كان إمام وشيخ للطالب أحمد بن مرزوق لحبيباتي بالجامع الكبير بقسنطينة، كما أخذ عنه لحبيباتي في الزاوية الحنصالية حين درس فيها بن مهنا متطوعاً⁽⁴⁾.

(1) - حماني (أحمد)، صراع بين السنة والبدعة، ج2، ص231.

(2) - نفسه، ج1، ص377.

(3) - نويهض (عادل)، معجم أعلام الجزائر، بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1983م، ص-323 للتوسع يراجع: - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص22، - عمار طالي، ابن باديس حياته وآثاره، ج1، مقدمته. - سركيس، معجم المطبوعات، ج2، 1928. ص1183. - حماني، صراع بين السنة والبدعة، ج1، ص377.

(4) - فيلاي، المرجع السابق، ص190.

• أبو الفيض عاشور بن محمد الحنقي: «1848 - 1938»م

هو أبو الفيض عاشور بن محمد بن عبيد بن أبي عبد الله محمد المسعودي بن أبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي الحنقي، المشهور في قسنطينة باسم «الشيخ عاشور». ولد ببلدته الأصلية: خنقة سيدي ناجي⁽¹⁾ من قرى الزاب الشرقي، وتربى بها يتيمًا، وحفظ القرآن فيها حفظًا متقنًا في مدة خمسة أعوام ونصف عام، وعمره يومئذ أقل من تسعة أعوام، على أيدي ثلاثة من المشايخ الأشراف بالبلدة.

وبعد حفظه للقرآن الكريم توجه إلى بلدة الجريد، من بلاد الجنوب التونسية، لنيل مرغوبه وتحصيل مطلوبه من العلوم والمعارف؛ لأن بلدة الخنقة وإن كانت في سالف الأزمان دار علم وعرفان إلا أنها قد أفقرت من علمائها وأدبائها أو كادت... وكانت مدينة نفطة بالجريد في تلك الآونة زاخرة بالعلوم والعلماء الفطاحل، فتوجه إليها، حيث مكث بها مدة عام ثم رجع إلى بلده خنقة سيدي ناجي، فمكث بها مدة ستة أشهر. ولما لم يجد من أهلها إقبالاً على العلم غادرها إلى قسنطينة حوالي عام 1287هـ - 1870م⁽²⁾. وجاء الشيخ عاشور إلى حاضرة قسنطينة بنية نشر العلم فيها، فأقام بها نحو ثلاثين سنة يعمّر مساجدها وزواياها بالدروس، ووجد بها إقبالاً انتفع به من انتفع، ولم ينقطع عن التدريس لولا القواطع والموانع التي ربما كان من أهم أسبابها طول الأمد المورث للملّ وتثبيط الهمم، إلى جانب منافسة المعاصرين. وفي قسنطينة كان اجتماعه بشيخه محمد بلحداد تلميذ الشيخ محمد بن عبد الرحمن الجرجري، شيخ الطريقة الرحمانية المشهور⁽³⁾.

حدث للشيخ عاشور حوادث، اضطرتّه إلى الخروج من قسنطينة والطواف في أنحاء البلاد، واستقر بعد ذلك بزواوية الهامل، فأكرمه شيخها محمد بن أبي القاسم فاعتمده مدرّساً للعلوم بالزواوية، انتهزت السلطة المحليّة الاستعمارية فرصة الخلاف

1 - احتط بلدة سيدي ناجي الشيخ الأكبر العلامة أبو البركات المبارك بن الشيخ قاسم بن الشيخ ناجي الشريف الحسيني الإدريسي المنصوري الناجي فيما بين القرن العاشر والحادي عشر الهجري (15 - 16م) فنسبت إليه، وله بها عقب إلى الآن.

2 - محمد الهادي شعيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، ص563.

3 - نفسه، ص564.

الشخصي بين الشيخ عاشور ومنافسيه، فعملت كعادتها لتعميم الفتنة وتفريق الكلمة بين الجماعات، وحتى بين العائلات لتضرب بعضهم ببعض وتأمين على نفسها عائلة اتفاقهم الذي قد يؤدّيهم إلى الاشتغال بها في مستقبل الأيام، وإلى ما يعينهم من أمور دينهم ودنياهم. كانت نتيجة التنازع نفى الشيخ عاشور إلى إقليم تعظمت بأقصى الجنوب الجزائري، وهو إقليم ذو جبال صخرية شاهقة جرداء مشرفة على واحات توات الواقعة إلى الجنوب الغربي من الأغواط، وتسقى واحاتها الغناء بمياه وادي الساور. بينما بقية المناطق موحشة جرداء معطشة لا ماء فيها ولا شجر. مكث الشيخ عاشور في هذا المنفى نحو سبع عشرة سنة، قاسى فيها من العذاب ألواناً وأنواعاً.

عاش الشيخ عاشور، نحو 91 سنة. وفي آخر أيامه كفّ بصره فكان لا يمشي إلا بدليل. وقد ولد له في عمره ثلاث بنات، توفيت صغراهن في سن المراهقة، وبقيت اثنتان (فاطمة وكتثوم). وكان حاد الطبع، عصبي المزاج، يتأثر لأدنى سبب، وينفعل لأدنى مغاضبة. ولما أدركه الكبر والعجز لزم منزله إلى أن توفاه الله إليه في جمادى الثانية من عام 1348هـ الموافق لسنة 1938م، ودفن بمقبرة قسنطينة على حافة الطريق الأوسط وقبره غير بعيد عن قبر خصمه في الحياة الدنيا المرحوم الشيخ صالح بن مهنا الأزهري القسنطيني⁽¹⁾.

4. نشاطه التعليمي والاجتماعي «1885 - 1937م».

أ. النشاط التدريسي والتربوي:

وفي مرحلة التلمذ كان متطوعاً يُدرس المبادئ الأولى في الفقه والتوحيد في مسجد سيدي بوعبد الله أو سيدي محمد الشريف - بنهج الدباغين -، وكذا مسجد سيدي محمد النجار⁽²⁾ بالمدينة القديمة. كما كان يلقي دروساً في التوحيد (علم الكلام)، ومختصر خليل بزاية عيساوة في سيدي بوعنابة⁽³⁾، ومن معاصريه في مرحلة

1 - نفسه، ص (564 - 569). نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 136.

2 - النجاح ع 1974، 15 محرم 1356هـ - 28 مرس 1937م.

3 - جامع سيدي بوعنابة: ليس لدينا الآن معلومات عنه حالياً، إنما المسجد الموجود اليوم هناك هو المعروف من قبل باسم «زاوية عيساوة» وما زالت تقام فيه الصلوات الخمس. للتوسع يراجع: حماني، صراع بين السنة والبدعة، ج 1، ص 34 - حماني، شهداء علماء معهد بن باديس، ص 11 - أحمد حداد، الجهود الإصلاحية والأعمال الوطنية للشيخ

التلمذ الشيخ المولود بن الموهوب، والشيخ صالح بن العابد، والحاج أحمد البوعوي، والشيخ محمد بوشريط بن عامر، والشيخ عبد الكريم باش تارزي⁽¹⁾ الذي سيصبح فيما بعد مفتي الحنفية بقسنطينة وغيرهم.

كانت للشيخ أحمد مرازقة لحيياتي عناية زائدة بالتعليم والتربية، نزل إلى ميدان التدريس والإصلاح وعمره نحو 19 سنة؛ أي حوالي عام 1885م، قبل أن يسمي في المدرسة الكتّانية لإعطاء دروس في التوحيد والفقه والعربية. وكان الناس يحبونه لدينه وعلمه وبشاشته وإخلاصه وجهاده للنهوض ببلاده وقومه وترقيتها مادياً ومعنوياً، وكان معلماً ماهراً يتّصف بمحاسن الصفات التي تستلزمها شخصية المعلم الناجح في علمه⁽²⁾.

إن التعليم المسجدي عند الشيخ لحيياتي قد فرضته ضرورة الأمر الواقع، وذلك بهدف المحافظة على الشخصية الإسلامية خاصة أمام محاولات إدارة الاحتلال الإدماجية وتزايد خطر التعليم التبشيري. ولم يقتصر عمله فقط على التعليم المسجدي بل تعداه إلى المساهمة في تنشيط بعض حلقات الذكر في الزوايا والمؤسسات ذات الطابع الثقافي⁽³⁾. وكانت قد فتحت مدرسة سيدي الكتاني أبوابها لطلبة العلم بطابعها الرسمي الجديد في العهد الاستعماري قبل فتح معهد ابن باديس للقراءات، ما يُميز هذه المدرسة هو أنه تخرّج من رحابها مفكرون وقادة كبار، ومنهم الرئيس الراحل هواري بومدين خلال الفترة (1947 - 1948م)، وعلي كافي على يد الشيخ لخضر بولحلايس.

وتمّ تعيين المدرسة الكتّانية كمدرسة فرنسية شرعية سنة 1851م⁽⁴⁾ وأسندت مهمة إدارتها منذ افتتاحها إلى الشيخ محمد الشاذلي، أمّا التدريس فقد وُكل به بقية من العلماء كالشيخ المكّي البوطالي، ومصطفى بن جلّول وأحمد المبارك⁽⁵⁾. وابتداءً

أحمد حماني، أعمال الملتقى الوطني الثاني (المرجعية الفقهية والاستقرار الاجتماعي في فكر وفتاوى الشيخ أحمد حماني)، منشورات وزارة الشؤون الدينية، جيجل، جوان 2012م،

(1) - فيلاي، مدينة قسنطينة، ص 190.

(2) - النجاح ع 1974، 15 محرم 1356هـ - 28 مارس 1937م.

(3) - بوعزيز يحيى، أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال (19 - 20م)، مجلة الثقافة، ع 63، 1981، ص (12 - 13).

(4) - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي. ج 3، ص 366.

(5) - نفسه.

من سنة 1863م، أُستحدث فيها كرسي لتدريس اللغة الفرنسية، ويدرسها أستاذ فرنسي⁽¹⁾، وفي سنة 1876م، بدأ تنظيمها فعلياً، فصار مستواها ثانوياً⁽²⁾، وتدرّس فيه علوم العربية، والفقه والتوحيد، والقضاء، والحساب، والتاريخ، والجغرافية، والحضارة تلميعاً لصورة الغرب الصليبي الحاقداً. كما أنّهم جعلوا من شروط الالتحاق بها إجراء امتحان خاص للقبول⁽³⁾ كل هذا لقطع الطريق أمام المتخرجين، من الزوايا والمساجد، والمدارس غير الرسمية، للحيلولة دون وصولهم إلى هذه المناصب المؤثرة في المجتمع.

وقد عيّن الشيخ لحبيباتي في هذه المدرسة بعد أن طارت شهرته في سماء المدينة، وبلغت أسماع القاصي والداني، وصارت تلهج بذكره الألسن ثناءً على دروسه، التي كان يلقاها في مساجد المدينة المختلفة كسيدي بوعبد الله، وسيدي محمد النجار، وأحبّ طلاب العلم طريقته في التدريس، حيث نجح في مسابقة التوظيف بها وكان من الأوائل عام 1888م، وتعيين الشيخ في ذلك الظرف أعطى المدرسة والمدينة دفعةً قوياً إلى التقدم في مسيرة العلم والإصلاح ذلك أنه جاء بعد زوال جيل من العلماء، الذين اضطلعوا بمهمة التدريس ورحيل آخر كالمجاوي إلى العاصمة والونيسي إلى الحجاز، والخنقي إلى الهامل...، وإشاعة العلم بين الناس، وهو قبل ذلك مختلف عن كثير من المدرسين في كونه تخرّج من الزوايا والمساجد العلمية بالجزائر، نقيض أغلبية المدرسين السابقين في سيدي الكتاني الذين كانوا في أغلبهم قد أخذوا العلم خارج الجزائر على قُلُوبهم، فكانت لا تسند إليهم مع بعض الاستثناءات مهمة التدريس في المدارس الرسمية الفرنسية، لأنّهم ليسوا موضع ثقة، من لدن سلطة المحتل، على غرار ابن مهنّا (الأزهر)، والشيخ المجاوي (القرويين)، والخنقي (نفطة)...

ولم يبرح الشيخ هذه المدرسة منذ أن تمّ تعيينه أستاذاً بها عام 1888م، حتّى خلف بها جيلاً جديداً من العلماء المدرسين، الذين أكملوا المسيرة من بعده، وأغلبهم كان قد حظي بشرف أخذ العلم عنه أو العمل إلى جانبه. قال عنه صاحب أم الحواضر:

(1) - نفسه، ج3، ص367.

(2) - نفسه، ج3، ص368.

(3) - نفسه، ج3، ص379.

«هو أيضاً من مشاهير علماء قسنطينة وفقهائها الأفاضل، كان يُدرّس الفقه والتوحيد والعربية بسائر فنونها في مساجد المدينة وزواياها، موصوفاً بالورع والتقوى والابتعاد عن الشبهات»⁽¹⁾.

ودرّس خلالها الشيخ لحيياتني فنون العربية المختلفة من نحو وصرف، وبلاغة، بالإضافة إلى تدريس علوم الشريعة، وعلم الكلام.. وطارت شهرته، وملأت آفاق قسنطينة، وما جاورها بفضل أسلوبه في التدريس، واقتداره على تقديم المادة العلمية المدروسة مبسّطة، خالية من التعقيد، ولصدق لهجته وصفاء سريره، فأحبّ التلاميذ وطلاب العلم الأحرار، الذين كانوا يحضرون دروسه في سيدي الكتاني وفي غيره طريقتهم وأسلوبه، فلا نعجب إذا علمنا أنّ الشيخ البوديلمي بن محمد، وعبد الحميد بن باديس، وعبد السلام بن زراق، والصادق وأحمد حماني بعد ذلك، كانوا ممن يحضرون دروسه خلال هذه الفترة⁽²⁾، وهو يكاد يقارهم سنّاً، فالأخذ عنه كان مدعاةً للفخر والاستطالة وشموخ الأنف.

ارتبط اسم المدرسة الكتّانية ومعها المسجد بالولي الصالح سيدي الكتاني، وبالباي العثماني المجاهد صالح باي (1771م-1792م)⁽³⁾، كما مر معنا سابقاً، وجعل عليه خيرة العلماء المدرسين الذين كان يجلّهم ويقرّبهم إليه، على غرار المفتي الحنفي الشيخ عبد القادر الراشدي، والقاضي المالكي الشيخ العباسي، والقاضي الحنفي الشيخ شعبان بن جلّول وغيرهم كثير، كما أسند إليهم مهمة تنظيم الأوقاف ومراقبتها وتنظيم الحركة العلمية في المدينة.

ونظّم المدرسة بتخصيص قاعات للدرس، وجعل قاعة خاصة بالصلاة، وبيتاً للوضوء وقاعات لإقامة الطلبة القارّين، وجعل لها عمالاً يقومون بصيانتها وخصص مرتبات للموظفين فيها وفي كلّ المدارس، من معلمين وأئمة وقيمين وعمال صيانة. كما جعل مدّة الدراسة عشر سنين إجبارية في المدارس للتخرج وإنهاء الدراسة،

1- محمد الهادي شعيب، أم الحواضر، ص547.

2- سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ص136.

3- ابن العتري، تاريخ قسنطينة. ص(79 - 82).

وفرض نظاماً خاصاً بها، وجعل عقوبات زجرية للذين يخلّون بالآداب العامة أو نظام المدرسة قد تصل إلى الطرد والفصل. أمّا العلوم التي كانت تدرّس بها، فهي علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب وعلوم الشريعة من فقه على المذهبين المالكي والحنفي والتفسير وعلوم الحديث والتوحيد والمنطق، والحساب، فهو تعليم عال، إذ يفترض من يلتحق بها استظهاره لكل القرآن ومبادئ العربية وأساسيات الفقه، التي يكون قد حصّلها في الكتاتيب والزوايا الكثيرة المنتشرة في المدينة وضواحيها، وكان يتخرّج منها الأئمة، والفقهاء، والقضاة.

فبعد كل هذا لا نعجب إذا قال الكاتب الفرنسي «بولارد» في كتابه: (تعليم الأهالي في الجزائر): «... كانت الجزائر فيما مضى تضم معاهد علمية عظيمة الشأن فالفلسفة والآداب والعلوم والطب وقواعد اللغة، والقانون الإسلامي وعلم الفلك، كلّ هذه العلوم كان يقوم بتدريسها أساتذة كبار، من الجزائريين أنفسهم كما كانت هناك مدارس عديدة متخصصة في تعليم القضاء الشرعي والعلمي، وكان الملوك يختارون مستشاريهم من صفوة المتعلمين، من خريجي تلك المعاهد. وكانت معظم بلدان الجزائر تضم أساتذة كباراً يشار إليهم بالبنان، ولقد أنشأ صالح باي مدرسة الكتانية بقسنطينة، وهو الذي أقيم ضريحه في معبد كتبت عليه هذه العبارة: هنا يرقد ذلك الذي أحيا العلم من العدم، وشيد له بيتاً يعد شرفاً عظيماً له أنه ليس ببيت ولكنه محراب العلم وهالة ساطعة من النور»⁽¹⁾.

لكن مع سقوط قسنطينة في أيدي الهمجيين أدعياء التحضّر والمدنية، سنة 1837م عمدوا إلى المرافق الدينية، والعلمية بالهدم، والمصادرة، وضيّقوا على العلماء والقضاة، وتمّ إبعاد من لم يرضخ لهم فهجّر من هجر ومات من أعيته الحيلة حسرةً وكمداً، وقرب آخرون تزلّفوا إليهم، فأسندت إليهم مناصب التدريس، والفتوى والقضاء مكافأة لولائهم لا لعلمهم، كلّ هذا من أجل قطع روافد الثقافة الإسلامية، وتحويل التعليم المسجدي عن وجهته الصحيحة، والتحكم في المتخرجين، بحسب ما تقتضيه

(1) - يحي بوعزيز، السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (1830 - 1954)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. ط2: 1995م. ص159.

الحاجة، في تسيير شؤون الأهالي، وخدمة سياسة ومصالح المعمرين. عرف خلال هذه الفترة عدة تغييرات كغيره من معالم المدينة⁽¹⁾.

وبعد سنة 1946م انتقلت دروس معهد ابن الحملاوي من وادي سقان بميلة إلى قسنطينة، وانتصب في جامع سيدي الكتاني وأطلق عليه الكلية الكتانية، وتولى إدارته الشيخ عبد العلي الأخضر الذي كان يشتغل في محكمة القضاء بقسنطينة، فلما أصبح معهد بن باديس فرعاً من الزيتونة فافوض الإدارة الزيتونية، ونجح في جعله فرعاً من فروعها وقصده كثير من أبناء الشعب، وانتفعوا بالدراسة فيه، وكان منهم رجال أبطال برهنوا بالكفاح أثناء حرب التحرير على الروح الإسلامية العالية، وبعد إغلاق أبواب ابن باديس واحتلال دار الطلبة من السلطة العسكرية الفرنسية بقي المعهد الكتاني يُوالي مهمة التدريس⁽²⁾.

وبخلاف التدريس كان الشيخ أحمد لحبيباتي يقوم بإمامة الناس ويُدرس القرآن الكريم في مدينة قسنطينة بعدد من مساجدها كجامع سيدي عبد المؤمن في حي السوق، وقد حظي في زمانه بمكانة واحترام كبيرين بين سكان مدينة قسنطينة والشرق الجزائري كله، فكان يعتبر أهم ملجأ للناس يستفتونه في أمور دينهم وديناهم⁽³⁾. وبقي متطوعاً بالتدريس بعد تقاعده عام 1930م، تارةً بسيدي الكتاني وأخرى بزواوية عيساوة، وبعدها بثلاث سنوات حجَّ إلى بيت الله الحرام، وبقي على حاله السابق إلى أن وافاه الأجل المحتوم وعمره يناهز السبعين عاماً بعد مصابه بفاجعة الاغتيال عام 1936م⁽⁴⁾.

ومما لا شك فيه أنّ رحلته للحج عام 1933م، كانت نافعة له فهو يكون قد التقى فيها بالعلماء والصالحين من الجزائريين المبعدين والمهجرين إلى المشرق العربي، من العائلات المجاهدة؛ الذين كانوا يحملون هموم أمّتهم، التي تكالبت عليها قوى

(1) - رشيد بورويبة، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية، تر. إبراهيم شيوخ، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1979م، ص187.

راجع: - غربي كمال، المساجد والزوايا في مدينة قسنطينة الأثرية، الجزائر: ذاكرة النفائس، 2012م، ص103.

(2) - حماني أحمد، محاضرات ومقالات الشيخ العلامة أحمد حماني، مج2، جمعها عبد الرحمان دويب، الجزائر: عالم المعرفة، 2012م، ص225.

(3) - مدونة بن عزوز

(4) - النجاح ع1974، 15 محرم 1356هـ - 28 مارس 1937م.

الشرّ والظلام، فزاد إيمانه بها وبوجوب الجهاد لتحرير العقول، التي يراد تجهيلها تارة، ومسئولها تارة أخرى بتشجيع البدع والضلالات، التي لا تخدم إلا مصالح العدو الغاصب الجاثم على صدرها.

كان الشيخ لحبيباتي يرشد الناس في دروسه إلى إخلاصهم لبعضهم، فأعماله القولية لفائدة الدين والوطنية والدعاية لبث العرفان كانت لا تنقطع أبداً، ودروسه النفيسة لا تنقطع أيضاً في جميع الفصول، فيدرس الفقه والتوحيد والبلاغة والمنطق والعلوم الرياضية إلى غيرها من العلوم المتقنة. وباجتهاد المرحوم في الدراسة والنصح في نشر العلوم تخرج عليه خلق كثير، وأنجب علماء انتشروا في الآفاق يثون العلم الصحيح بين طبقات الأمة⁽¹⁾.

كان أسلوبه في التدريس كعادة مدرّسي مساجد قسنطينة آنذاك يعتمد على أساليب علمية متعددة ومختلفة للتدريس. فقد كان يختار في تدريسه أساليب مختلفة منها:

1- قراءة أحد الكتب على تلاميذه مع أحد التعليقات والشروح التي وضعها أحد العلماء السابقين، وبذلك يقتصر عمله على ضبط قراءة النص، إلى جانب التفسير العرضي للعبارات الصعبة.

2- قراءة أحد الكتب، وذلك بقراءة النص وإيراد مختلف وجهات النظر التي كتبها العلماء حوله، وفي العادة يقوم هو بتحضيرها من مراجع مختلفة.

3- أن يقوم بتجميع الشروح والحواشي المختلفة.

إن الطريقة الأولى هي أسهل الطرق المتبعة في التدريس، ولذلك كان يكثر منها العلماء الذين يتبعونها في إلقاء محاضراتهم. ونجد من بين المدرسين في قسنطينة من يتبع الطريق الثانية، وهذا الأسلوب في العادة يحتاج إلى براعة وإتقان في علوم اللغة العربية. ويبدو أن الشيخ لحبيباتي قد استفاد كثيراً من كتاب شيخه المجاوي (إرشاد المتعلمين في مبادئ العلوم)، و(نصيحة الإخوان في شرح قصيدة سيدي محمد المتزلي التونسي في

(1) - نفسه.

(التصوف)، و(الفريدة السنية في الأعمال الجيبية) و(الدرر النحوية شرح الشبراوية)، و(تحفة الأخيار في الجبر والاختيار) و(شرح المجردة في الجمل) وغير ذلك.

والظاهر أن هذه الآداب أو جُلّها كان يلتزم بها الشيخ لحبيباتي خلال تدريسه في الحلقات العلمية المنتشرة في ربوع مساجد وزوايا قسنطينة.

فقد كان يتحلّق الطلبة، والزوار حوله فيبدأ الدرس بالحمد، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والحوقة، وقراءة آيات من القرآن أو الأحاديث النبوية التي تحثُّ على طلب العلم والصبر في تحمّل مشاقه، ثم يطلب من الطلبة الاستقامة، والتقوى، كما أنه كان يُميز الدرس وخصوصاً إذا كان في المسائل الفقهية متعرضاً لآراء المذاهب الأربعة ذاكراً أدلة وحجج المخالفين، وراداً عليها، ومرجحاً ما يراه من الكتاب والسنة، وتلكم هي مَلَكَةُ العالم الفقيه المجتهد. وكان يجب على أسئلة السائلين من الطلاب، ويُوضح لهم المسألة ببسيط العبارة والأسلوب الواضح المرصع بالبالغة والفصاحة⁽¹⁾.

لقد تتلمذ للشيخ أجيال من التلاميذ، وطلاب العلم الأحرار، فتخرّج عليه كثير من العلماء والقضاة والمدرّسين، ورجال الصحافة والشعراء والأدباء، ولا يكاد ينازعه هذا الشرف في الجزائر — خلال الربع الأول من القرن العشرين — إلاّ القليل من العلماء المدرّسين، وهو ما أهّله لأن يتبوأ مكانة مرموقة، وانطلاقاً من تجاربه التدريسية المتنوعة في زوايا ومدارس قسنطينة نجد أن التلمذ عنده أخذ شكلين هما:

أ/ التلمذ الحرّ: لا يمكن بحال من الأحوال الوقوف على كلّ من أخذ عن الشيخ سماعاً وأجازته؛ لأنّ مصادر الترجمة لم تسعفنا بذكرهم جميعاً، وإنّ ذكروا فلاّتهم صاروا أعلاماً مشهورين، تقلّدوا مناصب الفتوى والتدريس والقضاء، ومنابر الصحافة.

ب/ التلمذ النظامي: من أبرز المتخرجين على الشيخ في المدرسة الكتانية بقسنطينة طوال مدة تدريسه بها، والتي فاقت الاثني وأربعين سنة نجد على رأسهم:

1 - (النجاح ع1974، 15 محرم 1356هـ - 28 مارس 1937م)

الشيخ علي البوديلمي بن محمد، وهو من أكثر تلاميذ الشيخ شهرة، فهو فقيه ومفت وخطيب أخذ عنه في المدرسة الشرعية بقسنطينة، وعاصر أحداثاً هامة في قسنطينة، فتأثر بها منها بروز بوادر حركة الإصلاح والنهضة الوطنية، وساهم فيها بحظ وافر، وساهم بشكل لافت في تفعيل الحركة الفكرية، فالشيخ علي البوديلمي كان من الذين جمعوا بين العلم والتصوف، درس على الشيخ لحبيباتي والشيخ بن باديس والشيخ الطاهر بن زقوطة ويحي الدراجي بقسنطينة، ثم توجه إلى جامع الزيتونة بتونس ثم إلى القرويين بالمغرب الأقصى وتحصل على شهادات في العلوم الإسلامية وفي الحديث بالخصوص، وكان هذا الشيخ رحمان الطريقة ثم مال إلى العلوية (الشاذلية)، وتوظف عند الإدارة الفرنسية إذ ولته وظيفة مدرس بجامع تلمسان بعد مسابقة جرت في وهران سنة 1942م⁽¹⁾، وفي (المرآة الجلية) بعض التفاصيل عن حياة البوديلمي، فقد درّس في زاوية أبيه بالمسيلة، ثم رحل إلى زاوية الهامل.

أما ثاني طلبته المميزين فهو الشيخ عبد السلام بن زراق (1889-1945م)، تخرّج عليه من المدرسة الكتانية إماماً ومدرّساً، تلقى دروسه بقسنطينة من سنة 1905 إلى سنة 1909م على عدة شيوخ وأساتذة بخلاف مترجمنا أمثال: الشيخ المولود بن الموهوب، والشيخ الصالح بن العابد، والشيخ عبد المجيد بن جامع، ومن الفرنسيين: موتيلانسكي، وسان كالبر ودورنو وغيرهم، والتحق بالمدرسة الثعالبية العليا بالجزائر من سنة 1909 إلى سنة 1911م، فقرأ بها على الأساتذة: الشيخ السعيد، والشيخ بن شنب، والشيخ عبد الحليم بن سماية، والشيخ عبد القادر المجاوي. ومن الفرنسيين جورج مارصي، وقوسطاف ميرسي، وغيرهم من مشاهير المستشرقين.

وبعد أن نال شهادة الدروس العليا بالثعالبية، سُمّي مدرّساً في وادي الزناتي يوم 14 ديسمبر سنة 1911م. وفي 23 أكتوبر سنة 1916م سُمّي مدرّساً بالمدرسة الثعالبية العليا بالجزائر مكان المرحوم الشيخ بن شنب. وفي 25 فيفري سنة 1924 سُمّي مدرّساً بالقسم العالي للدروس العليا بالثعالبية بالجزائر، وفي الثامن فيفري سنة 1929م عُهد إليه بالتدريس بمدرسة المسعفين الصحيين التابعة لمستشفى بارني بحي حسين داي

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، ص (23 - 25).

بالجزائر. وفي الثامن أوت سنة 1934 سُمّي مدرّساً بقسنطينة خلفاً للشيخ المولود بن الموهوب الذي أحيل على التقاعد. وفي فاتح جانفي سنة 1944م سُمّي أستاذاً خارج الإطار، فكان يدرس اللغة العربية وآدابها، والفقه والتوحيد، وكان معترفاً بفضلته من جماهير السكان، وكان مشجّعاً للمشاريع الخيرية والجمعيات المحلية ورئيساً لجمعية العائلات الكثيرة، وكان أول من سعى لإنشاء وتنظيم إذاعة الجزائر بقسنطينة وألقى بها عدة محاضرات عن تاريخ قسنطينة⁽¹⁾.

والشيخ الطاهر بن زقوطة، وهو من مشاهير علماء قسنطينة، كان إماماً خطيباً ومدرّساً بمسجد سيدي الكتّاني بسوق العصر، ولبث في الإمامة والتدريس مدة طويلة. وكانت وفاته بقسنطينة في شهر المحرم من عام 1368هـ الموافق ليوم 11 نوفمبر 1948م.⁽²⁾

والشيخ أحمد حماني الذي أخذ عنه مختصر خليل في زاوية عيساوة، ودروس التوحيد في ذات الوقت لأنها كانت أقرب محلاً إليه عندما كان يقيم عند أخيه محمود المدرس بالزاوية الطيبية التي كانت على بعد خطوات من الزاوية العيساوية، ويذكر الشيخ أحمد حماني أنه عندما حلّ شهر رمضان حضر والده إلى قسنطينة: «ولقي الشيخ أحمد لحبيباتني فرحب به لأنه كان زميله أيام طلب العلم في أيام الصبا ثم رجع إلى الريف»⁽³⁾.

والشيخ حماني هو أحمد بن محمد بن مسعود بن محمد حماني، ولد بقرية أزيار دوار تنجر بلدية العنصر، دائرة الميلية، ولاية جيجل في 6 سبتمبر 1915م الموافق لـ: 26 شوال 1333هـ، ونشأ في أسرة محافظة من أهل العلم والمواطنة والفضل حيث كان والده (صديق لحبيباتني في مرحلة التلمذ) فقيه قومه وزعيمهم، انتقل الطالب أحمد حماني إلى قسنطينة سنة 1930م رفقة ابن عمه الشيخ الصادق حماني، حيث أتم حفظ القرآن بجامع سيدي محمد النجار ثم درس بالزاوية الطيبية ثم الزاوية

(1) - محمد الهادي شعيب، أم الحواضر، ص-ص (545 - 546).

(2) - نفسه.

(3) - حماني، محاضرات، مج3، ص389.

العيساوية وقد تلقى العلم زيادةً عن الشيخ أحمد مرازقة على يد الشيخ صالح بن مهنا الأزهري، والشيخ عبد الحميد بن باديس. وفي سنة 1931م، انخرط الشيخ حماني في سلك طلبة الإمام عبد الحميد بن باديس لمدة ثلاث سنوات، فدرس بالجامع الأخضر، وبعد تحصيله وإتقانه لفنون الدراسة الابتدائية، رحل إلى تونس سنة 1934م، فانتظم في سلك طلبة الجامع الأعظم بتونس لمدة عشر سنوات حيث حصل على شهادة الأهلية في 1936م، وعلى شهادة التحصيل في 1940م ثم شهادة العالمية في سنة 1943م. وبعد عودته إلى قسنطينة سنة 1944م عين على رأس إدارة معهد عبد الحميد بن باديس، انخرط فضيلة الشيخ حماني في صفوف الثورة التحريرية بعد اندلاعها مباشرة وألقي عليه القبض في 11 أوت 1957م، حيث سجن بتهمة توزيع منشورات تحريضية وتأسيس جماعة التخريب والإفساد، وقد صدر الحكم ضده بحبسه 15 سنة مع الأشغال الشاقة، ومكث بالسجن إلى غاية 04 أفريل 1962 بعد وقف إطلاق النار، بعد الاستقلال عُيّن الشيخ أحمد حماني مديراً للمعهد بن باديس بقسنطينة، ثم أُستدعي لوظيفة المفتش العام للتعليم العربي وبعدها عُيّن أستاذاً مساعداً بكلية الآداب بجامعة الجزائر. في سنة 1972م كُلف بمهام رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بعدما كان عضواً فيه منذ تأسيسه سنة 1966م، وبموجبه مثل الجزائر في العديد من الملتقيات العالمية في تونس ومصر وليبيا والسعودية وإيران. واستمر في هذا المنصب إلى آخر عام 1987م، فكان يشرف على تنظيم الدعوة في المساجد ويصدر الفتاوى ويجاهد بالفكر والعلم واللسان. توفي العلامة أحمد حماني مساء يوم الاثنين 29 جوان 1998 بعد أن قضى عمراً زاهراً بالعلم والعمل حافلاً بالنشاط والحيوية تاركاً خلفه ذكراً طيباً عطراً⁽¹⁾.

جاء في تقرير تفتيشي للدروس الملقاة بمسجد سيدي الكتاني بقسنطينة خلال السنة الدراسية (1912 - 1913م)، من طرف مفتش المدرسين السيد «سان هالي»

(1) - للتوسع في ترجمته راجع: حماني، صراع بين السنة والبدعة، ج1، - حماني، شهداء علماء معهد بن باديس، - أعمال الملتقى الوطني الثاني (المرجعية الفقهية والاستقرار الاجتماعي في فكر وفتاوى الشيخ أحمد حماني). محمد الدراجي، ركائز الفكر السلفي عند الشيخ حماني في أربع حلقات نشرت بالأعداد: 153 و155 و156 و157 من جريدة البصائر السلسلة الرابعة.

بتاريخ 29 ماي 1913م: «أن الدروس كانت تلقى خلال ستة أيام في الأسبوع، بمعدل ساعتين في اليوم من الساعة الواحدة زواياً إلى الثالثة وفق البرنامج التالي:

الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	السبت
القواعد	الأدب	القواعد	التوحيد	القواعد	الفقه الإسلامي

أما الكتب المستعملة فهي: الآجرومية بشرح سيدي خليل، وقطر الندى لامية الأفعال، ورسالة أبي زيد، ومختصر سيدي خليل (باب النكاح والطلاق)⁽¹⁾.

ب. نشاطه الاجتماعي والثقافي:

لقد واصل الشيخ لحبيباتي نشاطه بقسنطينة وساهم في تدعيم الجو الثقافي بها إلى جانب كوكبة من الشيوخ. كما اهتم أيضاً بالتربية الخلقية وغرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفوس تلاميذها، ومرجعه في ذلك شيخه عبد القادر المجاوي⁽²⁾، كما أثر على الحياة الثقافية عن طريق المؤسسات والنوادي والجمعيات.

لم يكن الشيخ لحبيباتي — رحمه الله — مجرد عالم مدرّس فحسب، بل كان صاحب مشروع إصلاح، قائم على وعي كامل بالواقع، الذي يعيش فيه هو وأمتة، فهو ما إن استقرّ في قسنطينة مدرّساً بأحد مؤسساتها التعليمية الرائدة، حتى آمن بوجوب تنسيق الجهود الإصلاحية، مع كل من يعمل في هذا المنحى بإخلاص حتى لا يذهب جهادهم وجهودهم في مهب الريح، والعدو لهذه الأمة أهدافه واحدة، وإن اختلفت صوره، وأشكال مخططاته.

❖ التعليم والتربية:

وأول محور بدأ العمل فيه هو إشاعة العلم بين أفراد المجتمع، الذي بدأت تظهر فيه آثار السياسة الفرنسية التي تقضي بتجميد التعليم المسجدي الذي كانت له مؤسساته المنظمة والتي كانت عند احتلال قسنطينة تزيد عن المائة⁽³⁾، وتناقضت بشكل رهيب بعد فترة قصيرة، ممّا يوحي بإحكام مخططات العدو التي لم تكن

(1) - زوزو عبد الحميد، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر العام، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007م، ص 237.

(2) - المجاوي عبد القادر، اللع على نظم البدع. مطبعة فوتنانه، الجزائر، 1912، ص 30.

(3) - العتري (محمد الصالح)، تاريخ قسنطينة. ص 35، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج 3، ص 126.

عشوائية، كما يعتقد الكثير من الناس، فأشاع العلم بدروسه عبر مساجد قسنطينة الباقية، وفي المدارس التي كان يدرّس فيها ثم بالمدرسة الكتانية ومدرستها الشرعية. ومن أهم القضايا التي نالت القسط الأوفر من اهتمامات الشيخ لحبيباتي هي التربية، فلقد برزت شخصيته كمربي في هذا المجال، فحاول أن يعطي منهجاً للتربية، قائماً على أسس علمية حديثة كما خصّص جزء من اهتماماته للمربي، باعتباره طرفاً في العملية التربوية. ولا ننسى طبيعة تكوينه الصوفي الروحي الذي أثر كثيراً في الصبغة العامة لمجمل أنشطته وإسهاماته، فالشيخ تتلمذ على يد الطريقة التيجانية التي أصبح بعد ذلك أحد أقطابها، كما كانت له مكانة مرموقة واحترام كبير بين سكان قسنطينية والشرق الجزائري عامة.

ودعا الشيخ إلى العلم النافع دعوة قوية صريحة، ولا فرق بين الديني منه والديني الذي لا تستقيم الحياة إلا به، كما دعا إلى وجوب تعلّم اللغات الحية⁽¹⁾، كونها أداة للاطلاع على المعارف والخبرات الإنسانية المختلفة فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها... ولم يكن الشيخ ممن تستهويه الخطب العصماء، واعتلاء المنابر في كلّ ناد، دون أن يكون رائداً وسبقاً إلى الامتثال إلى ما يدعوا إليه أولاً، فهو كان ممارساً للتدريس وفق المنهج الذي لقنه إياه شيخه المجاوي ويراه هو مناسباً لمستوى التلاميذ وطلاب العلم فكثّر الإقبال على دروسه، وصار الأخذ عنه مدعاة للفخر والتطاول⁽²⁾.

كما استغل الشيخ خطب الجمعة، أحسن استغلال، في مسجد الكتاني، وفي غيره، فكان يتخذ منها مناسبة لتحسيس الناس بواقعهم، الذي ألوا إليه بسبب الجهل والابتعاد عن دين الله، والخمول واليأس الذي تسرب إلى نفوس كثير منهم، في عدم جدوى القيام بأي فعل تحرري، ومهما كان شكله، وذلك عقب فشل الكثير من المقاومات، ورأوا مصير المجاهدين من قتل ونفي، وسلب لممتلكاتهم.

(1) - النجاح ع1974، 15 محرم 1356هـ - 28 مارس 1937م.

(2) - قول الشيخ البشير الإبراهيمي في الشيخ البوعوي الذي كان يحضر دروس الشيخ ابن باديس، وكان قد أخذ عن الشيخ المجاوي وصحب الشيخ لحبيباتي. راجع: أحمد طالب، عيون البصائر، ج1، ص368.

كان للشيخ أحمد لحبيباتي الفضل في تكوين جيل من الفقهاء والعلماء ممن ساهموا في توجيه الأمة كجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رغم أن الاستعمار الفرنسي حاول كثيراً إثارة الفتنة وتدمير المكائد بين الشيخ وبعض أعضاء الجمعية وبخاصة عبد الحميد بن باديس، حيث اتهم الأخير بالتخطيط لمحاولة اغتيال الشيخ لحبيباتي، لكن الجميع تفظنوا وتيقنوا أن ذلك كان من كيد المستعمر للنيل من مكانة ابن باديس وعمله الإصلاحية⁽¹⁾. صحيح أننا نجهل الكثير من آرائه ومواقفه العلمية والتربوية - حالياً على الأقل - بسبب شح المصادر وندرة الوثائق اللازمة.. لكن يمكن القول أن هناك زوايا مظلمة وضلال باهتة في حياته، فالظاهر أن مصدرها عاملان:

- كونه موظفاً رسمياً فقد كان مقيد الفكر مقصوص الجناح، بينما نجد أن جماعة المصلحين الذين انطلقوا في أنشطتهم التعليمية والتربوية، وإسهاماتهم الاجتماعية والثقافية كانوا أحراراً طلقاء من أي التزام إداري أو تبعية مهنية⁽²⁾.

- كونه من خارج مدينة قسنطينة أصلاً، بينما كانت عائلات قسنطينة العريقة كعائلات: ابن باديس، وابن جلول، والفكون، وباش تارزي... تعتبر نفسها الأحق بقيادة النشاط الديني والثقافي، وزعامة الحراك السياسي والنضالي، وهو ما زاد في عزلة الشيخ لحبيباتي.

- السياسة والمجتمع:

لقد شارك الشيخ هو وجمع من أعيان مدينة قسنطينة من العلماء والمدرّسين والقضاة وكبار المالكيين في رفع عريضة تاريخية إلى الحاكم العام الظالم لويس تيرمان (L.tirmane) (1882م-1891م)⁽³⁾ سنة 1891م⁽⁴⁾ وقدموها إلى لجنة التحقيق الفرنسية برئاسة جول فيري وضمت القائمة: عبد الكريم باش تارزي المفتي الحنفي ومقدم الرحمانية، والمفتي المالكي الطيب بن وادفل، والقاضيان الشريف بن باديس، وحمو بن العمري (قاضي النواحي)، والمدرسان بالمدرسة الرسمية (الشرعية-الفرنسية)،

1- الموقع الإلكتروني: مدونة بن عزوز.

2- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص196

3- نفسه، ج3، ص131.

4- نفسه، ج2، ص193.

عبد القادر المجاوي، ومحمود بن الشاذلي، والإمامان محمد بن جلول والحاج سعيد بن باش تارزي⁽¹⁾.

تنوعت مطالبها بين الاقتصادية، والاجتماعية والثقافية، منها احترام الدين الإسلامي، واللغة العربية والقضاء، والتعليم الإسلاميين والعادات والتقاليد الوطنية، بعد صدور قانون الأهالي، وما تبعه من مصادرة الأملاك وإعطائها للمعمرين الجدد. وقالوا إن تجربة إجبارية التعليم قصيرة المدى، وإن أبنائهم كانوا يذهبون إلى المدارس الفرنسية (خلال الستينات)، بدون عقدة⁽²⁾.

أما في الجانب الاجتماعي فنجد كغيره من المصلحين حارب مختلف الأمراض الاجتماعية التي انتشرت وسط الجزائريين، فلقد عالج في خطبه ودروسه للخاصة والعامة عدة موضوعات ومن بينها موضوع القمار الذي كان ينتهي بصاحبه إلى الهلاك المادي والأخلاقي ويظهر ذلك في قوله: «فلا تجد قماراً لابساً ثوباً حسناً، فضلاً عن غيره من الضروريات وقرنه الله تعالى بالخمير في التحريم لشدة جرمه ولأنه من الكبائر»⁽³⁾.

وما نعرفه أيضاً عن أنشطته الاجتماعية هو مساهمته في تأسيس مدرسة السلام بقسنطينة عام 1936م حيث كان يشغل فيها منصب الرئيس الشرفي، غير أنه لم يلبث أن توفي في العام الموالي للتأسيس، قال عنه الشيخ الشريف الصائغي: «وهو ممن أعان على تأسيس مدرسة السلام، وهو الحريص على بقائها وتقديمها وهو الرئيس الشرفي الأعلى فيها»⁽⁴⁾.

وبمناسبة احتفالها السنوي بدخول سنتها الثانية من تأسيسها، أقامت مدرسة السلام بالمرشح البلدي بقسنطينة حفلاً كبيراً ذكرت من خلاله شيم وخصال أحد مؤسسيها وهو الشيخ لحبياتي بحضور تلميذه الشيخ الطاهر بن زقوطة إمام جامع سيدي الكتاني، والشيخ محمد القرشي الإمام بمسجد الأربعين شريفاً، كما حضر

(1) - نفسه، ج3، ص129.

(2) - نفسه، ج6، ص332.

(3) - النجاح ع1974، 15 محرم 1356هـ - 28 مارس 1937م.

(4) - النجاح، ع1374، 15 محرم 1356هـ - 28 مارس 1937م.

عن رجال الطرق الصوفية الشيخ أحمد بسطانجي شيخ الطريقة الحنصالية، والشيخ شمس الدين شيخ الطريقة القادرية.. وجماعة كبيرة من دوار أولاد الشيخ القشي، وكثير من الأئمة والمدرسين، و«كان جميع الصبية يحملون بدلاً سوداء حداداً على فقيد العلم والدين الشيخ أحمد لحبيباتي طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه، وجلس تلميذان أو ثلاثة فوق الكراسي بينما رفاقهم كانوا واقفين جنباً إلى جنب وأخذوا يرتلون آيات من الذكر الحكيم أرسلت لروح الشيخ أحمد لحبيباتي قدس الله سره ونفعنا ببركته..»⁽¹⁾.

وعموماً فإن المميز في فكر الشيخ لحبيباتي أنه فكر ذو طابع محلي جزائري محض، فهو نتاج العلاقات الثقافية الجزائرية الفرنسية، لذلك كان إنتاجه الثقافي إلا ما ندر يمتاز بشيء من الجفاف والمحلية وغلبة روح الحفظ والتكرار عليه. لعدة أسباب نذكر أهمها:

- أن مرحلة النشأة والتكوين العلمي في الأغلب كلها كانت في عهد الاحتلال. فقد تكوّن في المدارس القرآنية والمعاهد الدينية بالجزائر..
- توليه وظائف في عهد الجمهورية الثالثة أي بعد السبعينات ومعاصرته لتشريع الأندجينا والتجنس ونحوهما من القضايا التي واجهت المجتمع الجزائري.
- رغم أنه كانت له قاعدة عريضة من الأتباع في مدينة قسنطينة، وله صدى لدى الرأي العام الأهلي بها، إلا أنه كان يحسب على أهل البوادي ومن المعزولين نسبياً.
- كانت إسهاماته التربوية والتعليمية والإصلاحية معاصرة لحركة محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورشيد رضا.. وزعماء آخرين لحركة الجامعة الإسلامية في الشرق الأدنى.
- وواضح عليه التأثير بالإدارة الفرنسية، فهو ينتمي إلى فريق المحافظين حيث كان من رجال الدين الرسميين.

(1) - النجاح، ع 1375، 18 محرم 1356هـ - 31 مارس 1937م.

والمميز في فكر الرجل أيضاً هو أن أدواره (لم تتجاوز في الأغلب الجدران المحيطة بالمساجد والمدارس والزوايا التي عمل بها)، ولم تخرج عن ميداني التراث، والقضايا الاجتماعية الراهنة، بالإضافة إلى تهميشه لميدان تعليمي وإصلاحي آخر ألا وهو التعاون أو الاشتغال في العمل الصحفي رغم أن هذه الوسيلة كانت متاحة لديه بالنظر إلى علاقاته الواسعة مع المتهنين للصحافة أمثال الشيخ محمود بن كحول في كوكب أفريقيا، وعبد الحفيظ الهاشمي ومامي إسماعيل في النجاح، وتلميذه ابن باديس في مختلف صحفه وجرائده سواء قبل تأسيس الجمعية أو بعدها.. كما أن الاتجاه العام الذي سار عليه لحبيباتي هو اتجاه الولاء لفرنسا، في الظاهر على الأقل فهو لم يدعُ إلى حركة معارضة ولم يتزعم حزباً سياسياً انفصالياً، إنما لجأ إلى الدعوة إلى العلم والمعرفة واليقظة، كل ذلك في نطاق النظام القائم، مع التركيز على الخصائص المميزة للشعب الجزائري من الوجهة الحضارية، بالرغم من أن الظروف قد جعلته تحت الحكم الفرنسي، ومن الذين شاركوه في هذه الخصائص في عصره: صديقه المولود ابن الموهوب في قسنطينة، محمود كحول، وابن سماية، ومصطفى خوجة في الجزائر العاصمة، وابن رحال في الغرب الجزائري...

لقد كان الشيخ لحبيباتي من دعاة التعلم لكن في إطار ما تسمح به الرغبة الفرنسية، رغم أنه لم يكن خريج السربون ولا مدرسة سان سير، ولا حتى الكوليج الامبريالي، بل خريج المعاهد الصوفية والزوايا الدينية، إلا أنه حمل على عاتقه دعوة مواطنيه إلى التعلم وفق الرؤية الفرنسية. لا نستطيع أن نتهم الشيخ لحبيباتي بأنه كان عميلاً للإدارة الاستعمارية... ولكن فقط يمكن القول أنه كان يجهل خلفيات السياسة الاستعمارية وأبعادها، والتي ربما كان سيستوعبها جيداً لو أطل الله في عمره وشهد السقوط المخزي لفرنسا العظمى أمام جحافل الألمان عام 1940م.

ألم يؤيد بعض المشائخ أمثاله الحكومة العامة سنة 1933م حين أصدرت منشور «ميشيل» بغلق المدارس الإصلاحية؟ ألم يدعم مشائخ آخرون فرنسا سنة 1914م ضد الدولة العثمانية؟ ألم يصفوا المؤتمر الإسلامي سنة 1936م بأنه كان يتدخل في السياسة ويتحدث عن الوطنية الممنوعة؟! إن السلطة الفرنسية كانت تجد أمثال هؤلاء المشائخ

في كل وقت يهتمون على قراراتها ويصدرون لها الفتوى المناسبة، ومع ذلك فلا نستطيع أن نسمي هؤلاء جميعاً بأنصار الاستغراب لأن هؤلاء الدعاة كانوا من الجاهلين بشؤون السياسة ومطباتها أما الأنصار الحقيقيون للاندماج فهم طائفة أخرى.

لا نعرف أن السلك الديني قد اتخذ موقفاً من الثورات والمحاكمات والتغيرات التي حدثت في الجزائر وما أكثرها ولذلك شعرت الإدارة بواجبها نحو عناصر من هذا السلك فمُنحتهم أوسمة معينة سميت بالأكاديمية أو العلمية، وكان ذلك في عهد بداية التنوير أي عهد «جول كامبون» (1891 — 1897م) لإحكام قبضته بالتقرب إلى هذه الفئة، ومن رجال الدين الذين حصلوا على الوسام إمام الجامع الكبير واسمه «أمين قدور بن محمد بن عبد الرحمان» وكذا «محمد السعيد بن زكري» إمام جامع سيدي رمضان و«علي بن الحاج موسى» قِيم ضريح الشيخ الثعالبي و«أحمد بن القبطان» الإمام المتقاعد و«عبد القادر المجاوي» المدرس بالثعالبية... وهذه النياشين قد منحت لعدد آخر من رجال الدين الرسميين وحتى غير الرسميين مثل الشيخ «محمد بن يوسف اطفيش» في بني يزغن و«محمد بن بلقاسم» شيخ زاوية الهامل... وليس الهدف هنا ذكر قائمة من هؤلاء ولكن لنحكم على أن الرجل استناداً إلى ما توفر لدينا من مصادر لم يحز على أي من هذه الأوسمة والنياشين.

والأكيد أن الشيخ لحبيباتي قد واجه امتحاناً عسيراً خلال الفترة التي أعلن فيها عن فرض التجنيد الإجباري (1912م). لكن يجب أن نُقر مبدئياً أننا لم نعثر على أي وثيقة في حدود ما بحثنا تُبرز لنا رأي الشيخ لحبيباتي في هذه القضية (تأييداً أو موافقة) وهو الذي طالما نادى على مواطنيه بدخول المدارس الرسمية وإتباع خطوات الفرنسيين في التقدم، كما أننا لم نسمع عنه أنه استقال من منصبه كمدرس بالكتانية.. احتجاجاً على فرض التجنيد الإجباري على الجزائريين... أو على فرض القوانين الاضطهادية على الأهالي، فقد ظل في وظيفته إلى أن أعجزه المرض والكبر، وهو ما يدل على رضى الفرنسيين عنه بل أكثر من ذلك فقد اقترحت الإدارة الفرنسية أن يصلي بالمسلمين والوفود الرسمية في جنازة الشيخ «محمود كحول» الذي اغتيل في رابعة النهار، في القضية المشهورة المرتبطة بالمؤتمر الإسلامي، وأتهم فيها الشيخ الطيب

العقبي بالتحريض عليه بأنها كانت من تدبير الإدارة الفرنسية ومصالح المخابرات، لضرب وحدة المؤتمر الإسلامي وزعزعة الرأي العام الوطني من جهة، وضرب جمعية العلماء باتهامها بالاشتغال بالسياسة وعزل الجمهور عنها من جهة أخرى.

وبتتبع سيرته كان الشيخ لحبيباتي يتحاشى دوماً نقد السياسة الفرنسية في علاقتها مع الأهالي، أو التعرض للمقاومة الشعبية أو تأييد أي عمل سياسي أو عسكري يقوده الجزائريون ضد الاستعمار الفرنسي، ويحاول جاهداً التعفف عن الخوض في هذا المجال.. منها مثلاً أننا نجده يغيب عن صلاة الغائب التي أقيمت في قسنطينة على فقيد الحركة الوطنية الأمير خالد بن الهاشمي، وهي ملاحظة انتبعت إليها مجلة الشهاب، حيث قالت: «في يوم عيد النحر بعد صلاة العصر خرجت الجموع من سكان قسنطينة إلى المقبرة لإقامة صلاة الغائب على الأمير خالد رحمه الله فتقدم الشيخ عبد الحميد بن باديس فعرف الناس بحكم الصلاة على الغائب من رآها من الأئمة الأربعة رحمهم الله، ثم صلى بهم ثم ألقى خطاباً في الوعظ وتأيين الفقيد.... ومما لوحظ أنه لم يحضر هذه الصلاة أحد من العلماء الرسميين وأشباه الرسميين.. فرحم الله الرجال العاملين ومن يقدر أقدار العاملين..»⁽¹⁾.

وكخائمه لهذا المطلب يمكن القول أن الشيخ لحبيباتي لعب دوراً هاماً لا يمكن إنكاره في الحياة الثقافية والعلمية، فقد تخرّجت على يديه أجيال وأجيال من الأئمة والقضاة والمفتيين والمدرسين، فأدواره الكبيرة أخذت من عمره عدداً يزيد من نصف قرن (50 سنة).

ونحن إذ نتحدث عن مواقفه تجاه القضايا الوطنية والدينية، أو تجاه السلطات الاستعمارية والتي شابهها الكثير من الشك والغموض، فلا بد أن نضع في حسابنا الظروف التي عاشها حتى لا نظلمه، فالشيخ لحبيباتي قد عاش في فترة مظلمة في حياته التعليمية أو المهنية، فتكوينه الدراسي كان على أيدي عدة زوايا هي في الأصل واجهات علمية لطرقها الصوفية التي خفّ صوتها المعارض للوجود الاستعماري بالجزائر كثيراً نتيجة ما تعرّضت له من قمع وتدمير لمنشآتها، وقتل وسجن ونفي لزعمائها وأعلامها ومريديها، ومصادرة لأموالها ومقوماتها.. وبدا وكأنها بعد فشل

(1) - الشهاب، ج1، مج12، 1 محرم 1355هـ - أبريل 1936م، ص50.

كل ثورة شعبية أضحت تنشد الموالاة والاعتزال حفاظاً على ما تبقى لها من مقومات البقاء والاستمرارية، فكانت ميزتها المستحدثة خلال هذه المرحلة وإن لم يكن ذلك في أغلب أتباعها - وأخذاً بمبدأ حسن النوايا - هو التقية أي إخفاء مبدأ الرفض والكرهية للمستعمر واستظهار مبدأ الموالاة والقبول، فليس غريباً أن يتصف أتباعها ومرتابيها بهذه الخاصية وطبعاً لحبيباتي كان أحدهم.

إن الشيخ لحبيباتي مثله مثل أعلام جيله ساهم مساهمة فعالة في يقظة الجزائر خلال هذه الفترة، ذلك أنهم جميعاً حاولوا من خلال تركيزهم على مفاهيم التعليم والتقدم والتحرر أن يطوروا المجتمع الجزائري وأن يجعلوا منه مجتمعاً حديثاً ومتنوراً بدل أن يبقى مجتمعاً قديماً وتقليدياً، صحيح أن الشيخ لحبيباتي من خلال علاقاته الوطيدة بالإدارة الفرنسية كان يُشجع تعليم الجزائريين تحت العباءة الفرنسية، وعلى حمل رسالة فرنسا الحضارية في الجزائر، لكن بالمقابل أيضاً عارض التجنس ولم يطلبه، ورفض الخدمة العسكرية الإجبارية ولم يدع لها.. وانتقد الإدماج عموماً ودعا للمحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين، وصحيح أيضاً أنه قبل ببعض الإصلاحات الفرنسية المتطرفة التي لا تخدم كلية الأهالي، لكن دون تناقض مع الواقع الجزائري، فكان شعاره دائماً الإصلاح بكل الوسائل.

1. محاولة اغتياله الفاشلة وعلاقتها بالمؤتمر الإسلامي.

بعد رحيل الأمير خالد⁽¹⁾، بدأت الحركة الوطنية الجزائرية تسير وتتطور رغم استخدام الشدة والعنف ضدها حيث أخذت الجمعيات والهيئات السياسية في الظهور، وأخذت اتجاهاً في الوضوح خصوصاً في الثلاثينات⁽²⁾ وهي الفترة التي تم فيها تحديد اتجاهات هذه التيارات السياسية.

(1) - وفي نعيه للأمير خالد بجريدة الشهاب وصف الشيخ ابن باديس ظروف الجزائر حينها بقوله: «.. كانت الجزائر في تلك الأوقات تعاني أزمة من أغرب وأفتك الأزمات... فالحقوق معدومة والمظالم مرهقة، والضرائب فادحة، والأحكام الزجرية قاسية رهيبة... ولا يكاد يجتمع ثلاثة من المسلمين حتى يكون البوليس رابعهم، وقد انحطت الأخلاق تجاه هذه النكبات وألفت النفوس الخنوع والانزواء، ومن تكلم أو تحرك عُذَّ ثائراً مقاوماً للسلطة...». أنظر: -الشهاب، فيفري 1936م.

(2) - عن هذه الاتجاهات وتعدادها راجع: جلال (بحي)، السياسة الفرنسية في الجزائر (1830-1960)، مصر: دار المعرفة، 1959م، ص (276 - 279).

❖ مثل أقصى اليمين رجال الطرق الصوفية الذين تعاونوا مع الاستعمار نظير الاحتفاظ بامتيازاتهم المادية ونفوذهم في الأهالي.

❖ مثل اليمين المعتدل؛ المنتخبين والنواب الجزائريين الذين يرغبون في الوصول بأنفسهم وبأبناء بلدهم إلى الحصول على الحقوق المدنية الفرنسية.⁽¹⁾

❖ مثل الوسط؛ العلماء الذين اعتزوا بشخصيتهم المستمدة من اللغة العربية والدين الإسلامي على السواء ورفضوا فكرة التجنيس.⁽²⁾

❖ جسّد اليسار جمعية نجم شمال إفريقيا التي ضمت إليها العمال الجزائريين والمغاربة في فرنسا.⁽³⁾

❖ وجسّد أقصى اليسار الحزب الشيوعي الجزائري مع فكرة الانترناسيونال.⁽⁴⁾

وسنلاحظ أن قوى اليمين المتطرف قد احتفظت مع تطور الحركة الوطنية الجزائرية وسارت قوى اليمين المعتدل، وقوى الوسط صوب اليسار في خطوات سريعة وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية مما أدى إلى خروج ثورة الجزائر الكبرى سنة 1954م بشكلها واتجاهاتها الواضحة.

لقد ارتبطت الحركة الإصلاحية الجزائرية بتطور الوعي الوطني وبفعل انتشار الروافد الشرقية (صحف - كتب - زيارة شخصيات ...)، وكذا إنشاء النوادي والجمعيات والأحزاب السياسية والصحف، وقد تحكمت في تطورها عوامل وظروف خاصة كما أنها ظهرت كنتيجة للصدمة الحضارية التي طغى بها العالم الغربي على باقي الشعوب، فأضحى هو الخصم والحكم والمعيار.

وكانت هذه الحركة من حيث منطلقاتها استمراراً وتواصلاً لكفاح الجزائريين في شكل مطالب سياسية وحركة اجتماعية وثقافية بعد المآل الفاشل الذي آلت إليه المقاومة الشعبية المسلحة في صدها للعدوان الصليبي الاستعماري خلال السنوات

(1) - عنهم راجع: جلال (يحي)، المغرب الكبير، ج4، بيروت: دار النهضة، 1981م، ص (215 - 219).

(2) - جلال (يحي)، السياسة الفرنسية، ص (278 - 281).

(3) - نفسه، ص (283 - 286). وأيضاً: جلال (يحي)، المغرب الكبير، ج4، ص (221 - 234).

(4) - راجع. أكاديمية العلوم، المرجع السابق، ص.ص (328 - 333).

الفارطة (1830-1919م)، ومن خلال هذا الواقع تطورت الحركة الإصلاحية الجزائرية منذ دعوة الأمير خالد التي كانت تطالب بالمساواة في الحقوق والواجبات والمحافظة على المميزات الشخصية الإسلامية للجزائر، قبل أن تأخذ الحركة طابعاً سياسياً وعملاً إصلاحياً حيث تبلور هذا التيار في تنظيم حزبي سياسي، بدأ نشاطه في أوساط العمال المهاجرين بفرنسا «منظمة نجم شمال إفريقيا»⁽¹⁾ E.N.A عام 1926م. بينما غلب على التيار الثاني وهو الإصلاحي الاهتمام بالواقع الجزائري حيث تركزت جهود رجاله وفي مقدمتهم الشيخ بن باديس وصحبه على بعث الأمة الجزائرية العربية الإسلامية.⁽²⁾

وتجنباً للتفاصيل التاريخية والتحليل السياسية العديدة فإننا نجمل القول في هذا المجال بأن التوجه الإصلاحي بشقيه بزعامة مصالي الحاج⁽³⁾ فيما بعد والسلفي العامل على بعث مقومات الأمة الجزائرية الذي تزعمه ابن باديس واجه في الميدان وفي معترك العمل الاجتماعي والسياسي نموذجاً آخر من التوجهات والسلوكات يمكن أن نطلق عليه التوجه الاستيعابي أو التيار الاندماجي.

غير أن فرنسا حكمت وفقاً لآراء الجزائر الأوربية قصد إسكات اعتراضات المستوطنين ولكنها خسرت حضوة المسلمين.. وكان ليوتي يرى في عام 1923م: «أن تلك كانت سياسة مجرمة حقاً»⁽⁴⁾، ولم يلبث أن اقتنع بذلك الحاكم اليعقوبي

(1) - عن تطور هذا الحزب راجع: قناناش (محمد) - قداش (محفوظ)، نجم الشمال الإفريقي (1926 - 1937)، الجزائر: د.م.ج. 1984م، ص 12 وما بعدها - عبد الحميد (مسعود)، حقيقة الجزائر. مصر: دار الكتاب العربي 1956.

(2) - سعيدوني (ناصر الدين)، الجزائر منطلقات وآفاق. بيروت: دار الغرب الإسلامي. 2000م، ص 213.

(3) - مصالي الحاج بن أحمد (1898-1974): ولد بتلمسان من عائلة فقيرة - وكانت فترة طفولته معاناة - في عام 1898م. وفي عام 1918م يستدعى للخدمة العسكرية وفي فرنسا انتسب إلى جامعة بوردو كمستمع حر وفي عام 1920 يعود إلى الجزائر، حيث فشل في العثور على عمل سنة 1923م عاد إلى فرنسا واشتغل في مهن حرة، في عام 1926 تولى عضوية نجم شمال إفريقيا. وكان ضمن الوفد الشيوعي في مؤتمر بروكسل وفي 1929م يتم حل النجم ويعيد تجديده سنة 1933م. وبعد فراره من السجن عام 1935م إلى جنيف يعود إلى فرنسا مع صفوف الجبهة الشعبية سنة 1936م، وبعد حل النجم يؤسس حزب الشعب الجزائري في مارس 1937 لكنه أودع السجن فيما بعد، وبعد معاناة كبيرة يسرح سنة 1946م ليعلن عن تأسيس حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وفي فيفري 1952م ينفي إلى فرنسا، ومع إعلان الثورة في نوفمبر 1954م، تنتهي حياة مصالي السياسية وبقي معزولاً عن وطنه إلى أن توفي في فرنسا.

Méssali (Hadj), Les Mémoires de Messali Hadj, Paris: Ed J.C.Lattres. 1982

Méssali (Hadj), Le Problème Algérien Appel aux Nations Unies, Paris: Imp. du château d'eau, S.D, P.P.19-42.

(4) - أجيرون (شارل روبري)، تاريخ الجزائر المعاصرة، تر. عيسى عصفور، بيروت: منشورات عويدات، 1982م، ص 119.

«فيوليت» (VIOLETTE)، الذي عرض مشروغاً يحمل اسمه لكنه قوبل بالرفض من طرف الأوروبيين.. مما حدا به إلى أن يصدر كتابه في عام 1931م بعنوان: «هل تدوم الجزائر»، حيث أوضح مطالب الشبان الجزائريين قائلاً: «إذا اقترفت فرنسا الخطيئة التي لا تغتفر فلم تفهم هؤلاء الشبان فإنهم سينساقون كما في الهند الصينية إلى شعور وطني ساحط»⁽¹⁾، كما أن الذكرى المئوية للاحتلال التي أحتفل بها احتفالاً مهيناً للمسلمين يمكن أن تحدد التاريخ الذي بدأ به انفصال الصفوة الجزائرية عن المطالب السابقة.

ففي عام 1927م ظهرت شخصية مصالي الراديكالية أين أسس حركة وطنية استقلالية.. كما ظهرت بعدها بقليل جمعية العلماء التي شرعت في إعادة الإيمان والإسلام إلى صفائه الأول فكانت مولداً للترعة القومية، وما من شك في أن العلماء وفي مناخ المعارضة القوي بين أعوام (1933-1936)م قد وطدوا نفوذهم ووجهوا الرأي العام الإسلامي لصالحهم. أما الشبان الجزائريون أنصار الدمج فإنهم بالعكس لم يستطيعوا الحصول على شيء رغم تشكيل بن جلول وفرحات عباس لاتحاد المنتخبين الأهليين في عام 1927م «حيث انهالت خيبات الأمل»⁽²⁾، وكان لا بد من انتظار عام 1936م حتى نرى تجسيدا لسياسة جديدة للحركة الوطنية الجزائرية، ذلك أنه مع انتخابات الجبهة الشعبية أعيد الأمل إلى الجزائريين المسلمين وانعقد المؤتمر الإسلامي الأول في جويلية 1936م والذي قرر في نهاية دورته الثانية، بعد العودة الفاشلة للوفد في أوت 1937م بالتخلي عن مشروع (بلوم - فيوليت) وبقتل سياسة الإدماج.

إن الأحداث التي عرفت الجزائر خلال (1930 - 1935م) قد جعلت بعض الفرنسيين لا يصدق أن الجزائريين الذين كانوا في نظرهم هادئين وموالين لفرنسا سنة 1930م يصبحون بعد خمس سنوات يشكلون خطراً داهماً⁽³⁾، فابن باديس مثلاً في الفترة الأولى أثناء العشرينات كان يحب العمل المنظم الهادف ولكن دون ضوضاء

(1) - نفسه، ص 120.

(2) - نفسه، ص 143.

(3) - سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، ط4، ج3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م، ص53.

وصخب، سواء كان العمل سياسياً كالذي قد يُثير أحقاد المستعمرين أو الديني كالذي يُمزق كلمة المسلمين. لذا بدأ يعمل مباشرة بعد عودته من تونس لنشر العلم والتربية الإسلامية دون أن يسيء إلى أحد أو جماعة فقال: «العمل لطمأنينة الضمير هو العمل المنتج في مثل هذه البلاد» وجعل عنواناً لأولى مقالاته في الشهاب، كما قال: «إن جو بلادنا المتأخرة لا ينفع فيها إلا العمل في جو هادئ لا لغاية سوى لإرضاء الضمير ولكي يكون العمل منتجاً...»⁽¹⁾، وقد استمر يعمل على ضوء هذه القنوات إلى أن نشر ندائه المشهور بمجلة الشهاب «هل من حازم يوفق لتأسيس جمعية العلماء»⁽²⁾ وفي 05 ماي 1931م تأسست بالجزائر العاصمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين⁽³⁾، «على أن جمعية العلماء اقتصر عملها على الصعيدين الثقافي والديني ونظرت إلى الأوضاع الاجتماعية نظرة سطحية، وطرحت المشكلة السياسية بكيفية غير سديدة ولكن هذا كله إن هو في الواقع إلا نوع من المحاولات لإصلاح ما أفسده الدهر، وشكل من أشكال التزعة المحافظة المتكررة في ثوب جديد، لأن برنامجها في الحقيقة لا يزال يفتقر للثقافة الصحيحة المنشودة...»⁽⁴⁾.

فالحركة الباديسية ليست حركة إصلاحية بالمفهوم الضيق لكلمة «إصلاح» وإنما كانت أعمق من ذلك وأبعد مما نتصور فهي وإن لم توفق في الجانب السياسي والاجتماعي - بحسب رؤية مصطفى الأشرف السابقة - فيكفي أنها حملت مشروع حضاري إسلامي ضخم، كان همه: «استحداث التغيير السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وفق التصور الإسلامي للأشياء...»⁽⁵⁾.

إن الأحداث الوطنية التي شهدتها الجزائر في العشرينيات، والتي طرحت قضية الحرية بمفهومها السياسي هي ذاتها التي ألهبت الحرية بمفهوم الإبداع، يقول محمد

1- الشهاب، ج1، مج7، فيفري 1931م.

2- إبراهيمي (محمد البشير)، سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر: دار الكتب، 1982م، ص (46-47).

3- عن التأسيس راجع: بن العقون (عبد الرحمان)، الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر (1936-1945)، ج1، الجزائر: م.و.ك، 1984م، ص (160 - 166).

4- الأشرف (مصطفى)، الجزائر: الأمة والمجتمع، تر. حنفي بن عيسى، الجزائر: م.و.ك، 1983م، ص 243.

5- فركوس (صالح)، أصالة وتغريب، الجزائر: دار الكوثر، 1992م، ص 83. للمزيد راجع: - جلال يحيى، السياسة الفرنسية، ص (278-279).

النيل في تقديمه لكتاب (زين العابدين السنوسي) الأدب التونسي في القرن الرابع عشر: «... أليس نبوغ الواحد من هؤلاء لا ينشأ إلا بانتصار خلق الحرية فيه على ناحية من نواحي طباعه المكتسبة بالوراثة والتقليد...»⁽¹⁾، إن هذا الموقف المتمرد غدته وفجرتة سلسلة من الأحداث الوطنية بلغت ذروتها في الثلاثينات، فالعبقرية هنا ليست فردية بقدر ما هي عبقرية مجتمعة هيئاً الأسباب لكهربة الإحساس المرهف في السياسي والمصلح والأديب والشاعر ومن الناحية السياسية كانت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى حافلة بالفعل ورد الفعل بين المستعمر والمستعمر، زاحرة بالانتفاضات الحزبية والتكتلات الوطنية، والتصادم مع قوات الاحتلال، ويعتبر حزب نجم شمال إفريقيا من أكثر الأحزاب السياسية تصعيداً مع الاستعمار خلال هذه المرحلة وذلك نظراً للمواقف الثورية والمعارك السياسية العنيفة التي خاضها أعضاء هذا الحزب ضد الوجود الفرنسي بالجزائر،⁽²⁾ ويرجع الفضل في تأسيسه إلى الحاج علي عبد القادر عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي في الفترة الممتدة من 1924 إلى 1925م، ومن الناحية النظرية كان الشاذلي خير الله رئيساً للحزب خلال مرحلة التأسيس (15 جوان 1926م)، ومنذ 1927م أصبح الحزب جزائرياً⁽³⁾، حيث استطاعت النجمة بقيادة أمينها العام السابق السيد مصالي الحاج أن تجمع في صفوفها جميع العناصر الجزائرية المتحمسة للعمل من أجل خلق كتلة وطنية ضد الأوربيين في الجزائر واسترجاع السيادة الوطنية للجزائر⁽⁴⁾، لهذا قامت فرنسا بحله أكثر من مرة.. وكان قادة الحزب (عيمش علي- مصالي الحاج - راجف بلقاسم...) يعيدون تأسيسه بتسميات مختلفة إلى غاية شهر نوفمبر من سنة 1936م، أين بدأ مصالي الحاج يُظهر الاعتدال في موقف الحزب بحيث أعلن أنه مستعد للتخلي مؤقتاً عن مطالبه المتعلقة باستقلال الجزائر وأنه يكفي بمنح الحريات الديمقراطية «وكان هدفه من وراء ذلك هو عدم تقسيم المسلمين»⁽⁵⁾، وفي خضم مجريات المؤتمر الإسلامي والفشل

(1) - تونس: الدار التونسية للنشر، 1979م.

(2) - الخزي (صالح)، حمود رمضان، الجزائر: م.و.ك، 1985م، ص 26.

(3) - Ageron. Histoire de L'Algérie. P 350

(4) - للاطلاع على هذه النصوص راجع:

André (Nouschi), La Naissance du Nationalisme Algérien. Paris: Ed. de Minuit. 1962. P62

(5) - Ageron. Histoire de L'Algérie. P 354

الذريع الذي لحق بمهمة الوفد في باريس، قرر مصالي الحاج أن ينقل نشاطه إلى داخل الجزائر ومنافسة خصومه هناك.

ويعتبر حضور الجمعية في عهد ابن باديس للمؤتمر الإسلامي في شهر جوان 1936م⁽¹⁾ من أهم الأنشطة السياسية التي قامت بها الجمعية، والتي لقيت في نفس الوقت جدلاً في مدى جدواها وتأثيرها.. وقصة هذا المؤتمر باختصار هي أنه في عام 1936م لوحث فرنسا للجزائريين بمشروع (بلوم-فيوليت) الذي ينتقد السياسة الفرنسية السابقة، وفي مقترحات المشروع إصلاح مستوى التعليم، تأمين نفس الحقوق التي للفرنسيين لبعض الجزائريين.... وقد وقف الجزائريون مواقف مختلفة متباينة من هذا المشروع، وبين هذه المواقف رأيت جمعية العلماء أن تقف موقفاً وسطاً، فلم تجار السلطة في مزاعمها، وفي نفس الوقت لم ترفض التعامل معها وبناءً على هذا دعت إلى انعقاد هذا المؤتمر⁽²⁾، لجمع كلمة الأمة وتوحيد صفوفها حول المسألة الوطنية، بعد هذا عقد المؤتمر الإسلامي وانبثقت عنه جملة قرارات منها تشكيل وفد جزائري يسافر إلى فرنسا ويعرض مطالب الجزائريين موحدة على الحكومة الفرنسية، وكتب الشيخ ابن باديس حينها مقالاً في الشهاب وصف رحلة الوفد واللقاءات التي عقدها، ورغم عدم نجاح وفد المؤتمر في تحقيق مطالبه إلا أن الجمعية ظلت حريصة عليه إلى أن جاءت حادثة مقتل مفتي الجزائر (محمود بن دالي المدعو كحول)، هذا الأخير الذي قيل عنه في الصحافة الفرنسية أنه قد أرسل برقية إلى الحكومة الفرنسية بباريس يحذرهما من خطر الوفد على مستقبل العلاقة بين الجزائر وفرنسا. وقد اتهم بقتله الشيخ الطيب العقبي، الذي كان لحظة مصرع المفتي على يد محترف الإعدام (شعير⁽³⁾) محمد المدعو عكاشة) يوم الأحد 03 أوت 1936م، على الساعة 9:30 بالملاعب البلدي مع سائر ممثلي المؤتمر والجماهير المؤيدة لفكرة المؤتمر. وتم اعتقال العقبي ورفيقه بن

(1) - للتوسع في حثيات المؤتمر الإسلامي راجع: - البصائر، ع30، السنة الأولى، الجمعة 12 جمادى الأولى 1355هـ - 31 جويلية 1936م ص (1 - 3) والعدد 31، الجمعة 19 جمادى الأولى 1355هـ - 07 أوت 1936م. ص1.

(2) - للتوسع في هذه المسألة أنظر: - أحمد بن ذياب، جوانب نضالية من حياة الشهيد محمد الأمين العمودي، مجلة الثقافة، ع86، مارس أفريل 1985م، ص235.

(3) - وسنمته الشهاب بـ: شابر، أنظر: الشهاب، ج6، مج12، ص278.

التركي في السجن وبعد تحقيقات ومحاكمات تم تبرئة الشيخ العقبي من اتهام عكاشة له وطويت قصة اغتيال المفتي من دون الكشف عن حقيقتها⁽¹⁾.

من جهة أخرى حاولت جمعية العلماء تفسير هذا التصرف الجبان من الإدارة الاستعمارية على أنه مؤامرة للقضاء على حالة التوحد والتآلف التي شكلها المؤتمر من مختلف أطراف الأمة المتناقضة، وبأن اتهام الشيخ العقبي هو اتهام مباشر على تورط جمعية العلماء في حادثة الاغتيال، وهو ما كان قد فهمه بن جلول الذي انقلب كلية لصالح الطريقة وضد جمعية العلماء⁽²⁾. ولقد شهدت الساحة السياسية والإعلامية خلال تلك الفترة لغطاً كبيراً حول هذه الحادثة المفبركة وما انجر عنها من صدامات وتضارب للآراء⁽³⁾. إن حادثة الاغتيال هذه لم تكن إلا كما قال الشيخ أحمد حماني: «نكتة البداية في فصل جديد بإسناد التهمة إلى العلماء عموماً، تم تخصيصها بالشيخ

(1) - للتوسع في تفاصيل هذه الحادثة راجع:- المدني توفيق، حياة كفاح، ج2، الجزائر: عالم المعرفة، 2010م، ص(367 - 379) - سعد الله، الحركة الوطنية، ج3، ص(100 - 102). - بول سولداني، مقتل الإمام كحول، الجزائر: مطبعة لاطيبو ليطو وجول كاربونل، 1936م - ثلاثة أيام في شهر واحد، الشهاب، ج6، مع12، جمادى الأولى والثانية، 1355هـ - أوت سبتمبر 1936م، (268 - 279) - وأيضاً بنفس العدد: اعتقال الأستاذ العقبي والإفراج عنه، ص (280 - 282)

(2) - ما يقولون عنا. قضية الأستاذ العقبي ومصرع الإمام ابن دالي عمر كحول، الشهاب، ج8، مع14، شعبان 1357هـ - أكتوبر 1938م، ص (414 - 415). - كما كتبت حول الموضوع جريدة البصائر مقالاً بعنوان: لا يعدم الحق أنصاراً، بناه كاتبه على جمل اختصرها جريدة لاديبش عن جريدة البويلار الباريسية لسان حال الحزب الاشتراكي والتي يرأس تحريرها رئيس وزراء فرنسا السابق ليون بلوم في أعدادها الصادرة في 23 جويلية 1936م، وما بعده ثم لما حصل على تلك الأعداد عرب المقال بتمامه. «حادثة اغتيال الشيخ كحول»، البصائر، ع31، الجمعة 19 جمادى الأولى 1355هـ - 07 أوت 1936م، ص(1 - 3) البشير الإبراهيمي، مقتل الشيخ كحول ج1 (ليسجل التاريخ ولتشهد الأجيال المقبلة)، البصائر ع32، الجمعة 10 جمادى الثانية 1355هـ - 28 أوت 1936م، ص(1 - 6) - ثم أردف المقال بجزء ثان وثالث تحت نفس العنوان في العددين: ع33، الجمعة 17 جمادى الثانية 1355هـ - 04 سبتمبر 1936م، ص(1 - 6) - ع34، الجمعة 24 جمادى الثانية 1355هـ - 11 سبتمبر 1936م، ص(1 - 3) - وكتب الشيخ الطيب العقبي عن نفسه بعد إطلاق سراحه مقالاً طويلاً امتد على عشرين من جريدة البصائر، بعنوان (مقتل الشيخ كحول - لفت نظر إلى حقيقة)، ع36، 09 رجب 1355هـ - 25 سبتمبر 1936م و ع39، 30 رجب 1355هـ - 16 أكتوبر 1936م.

(3) - للتوسع راجع ما نشرته مجلة الشهاب - ج7، مع12، رجب 1355هـ - أكتوبر 1936م، 1936، ص(286 - 287) - كما تحدث في الموضوع الشيخ البشير الإبراهيمي في افتتاحيتين لذات الجريدة بعنوان: آثار اعتقال الأستاذ العقبي في الأمة الجزائرية، ص(312 - 319) - وعربت الجريدة مقالاً لعباس فرحات بعنوان: زهق الباطل، ص(326 - 330) ومقالاً للدكتور تمارزي بعنوان: القلق والكدر بالجزائر، ص(330 - 333). كما تابعت جريدة النجاح لصاحبها عبد الحفيظ الهاشمي هذا الموضوع باهتمام بالغ: ع1883، 08 أوت 1936م - 21 جمادى الأولى 1355هـ (على عتبة اكتشاف الدسياسة) - ع1884، 12 أوت 1936م - 24 جمادى الأولى 1355هـ (كارثة الإسلام العظمى اكتشاف دسياسة واسعة النطاق جمعية إرهاب سرية في نادي الترقى) - ع1885، 14 أوت 1936م - 26 جمادى الأولى 1355هـ (كارثة اغتيال مفتي الجزائر - إلقاء القبض على عضو آخر من أعضاء لجنة الفتك السرية التي مركزها نادي الترقى) - ع1886، 16 أوت 1936م - 18 جمادى الأولى 1355هـ (إطلاق سراح العقبي مؤقتاً.. القاتل ينكر بعد الإقرار) .

العقي-أضعف نقطة في العلماء-حين ألصقوا التهمة به وبزميله عباس محمد واعلي التركي أحد ممولي المؤتمر واتهموهما بتسليح الجاني في نادي الترقى وزُجَ بهما في سجن بربروس رهن التحقيق....»⁽¹⁾

وفي ذلك الأسبوع نفسه دُبرت مكيدة في قسنطينة ضد العالم الورع الشيخ أحمد لحبيباتي، فأطلقت عليه النار في حي أهل بالسكان والمراد بذلك أن تُسند الجريمة في قسنطينة إلى الشيخ ابن باديس غير أن النار لم تصبه وعُرف الجاني فانتحر بإلقاء نفسه من جسر عال وأخذ معه سره وكان من ذوي السوابق...ويقول في ذلك الشيخ حماني: «ولكن الله سلم وأحبط المكيدة ونجا الشيخان من شرها ثم أن الناجي ندم على ما فعل وألقى بنفسه من الغل من قنطرة الشط، وصحبه سره معه، والجاني أعرفه شخصياً وهو شاب غوي متهور ينتسب إلى عائلة معروفة في قسنطينة بـ (ابن كافادار)..»⁽²⁾. ثم يضيف في مناسبة أخرى: «والذي ربطنا بهذه الأحداث هو أن أخي كان قريباً من الحادثة بزاوية مولاي الطيب ورأى الجاني يفر، وعرفه وهو يقول: (نجا مني الماكر)، أدركته وهو يروي الحكاية على ملاء من الناس، فنبهته إلى خطر ذلك فعاد إلى صوابه وما لبثت الشرطة أن استدعته وهو تلميذ الشيخ ابن باديس لاستنطاقه وبقي لديها 24 ساعة، استدعينا فيها وسُئلنا عن مكان وجودنا وأعمالنا، وقد خفت الوطأة بانتحار الجاني، والإخفاق في تدبير الجريمة ونجاة الشيخ أحمد لحبيباتي رحمه الله، وكان رجلاً تقياً نقياً بعيداً عن الشبهات...»⁽³⁾.

وفي حيثيات هذه الفاجعة التي ألت بالشيخ لحبيباتي كتبت جريدة النجاح في صفحتها الثانية تفاصيل هذه الحادثة بعنوان «اعتداء على عالم آخر...خمس طلقات نارية تطلق على العالم الخير سيدي أحمد لحبيباتي» وجاء فيه تفاصيل لما حدث: «يوم الاثنين 10 أوت 1936م حوالي الساعة الثامنة مساءً بينما كان العالم الجليل السلفي الخير سيدي أحمد لحبيباتي سالكاً نهج الزواف نازلاً لداره الكائنة برقم 26 من هذا النهج، وإذ وصل إلى الميضاة الواقعة فوق الزاوية العيساوية إذ

1- حماني، محاضرات مج3، ص420.

2- نفسه، مج4، ص60.

3- نفسه، مج3، ص (420 - 421).

بشقي يطلق عليه خمس رصاصات من مسدسه ولحسن الحظ لم يصب ولا برصاصة واحدة وقد لاذ بالفرار.

وكان الشيخ سيدي أحمد يظن عند إطلاق العيار الأول أن الصرخة صرخة «محرقة» فلم يُعرها التفاتاً حتى سمع الصراخ الثاني والثالث فعلم عندئذ أن الشقي يقصده فأخذ يتملص من قبالة المعتدي حتى لا يصيبه الرصاص. والجاني مجهول إنما هناك صبي كان حاضراً أوعز بشيء من أوصافه، وبمجرد انتشار الخبر أشرع... سكان المدينة إلى محل الحادثة وإلى منزل المعتدي عليه لُيْهِنُوا عائلته بالسلامة لما لسيدي أحمد من المنزل الرفيعة بين سكان المنطقة.

والشيخ سيدي أحمد رجل مسن يناهز 67 سنة يشتغل بالتدريس والتعليم في سبيل الله، وهو يلقي دروسه بجامع سيدي الكتاني والزاوية العيساوية. ولم ينخرط يوماً في حياته في جمعية أو اشتغل بسياسة أو خالط رجال السياسة أو غيرهم. ولهذا بقي متمتعاً بالاحترام والتوقير بين سائر الطبقات. ونحن لا يسعنا إزاء هذه الحوادث المكدره إلا أن نستقيح هذه العمليات الإرهابية التي ارتكبت إزاء علماء الدين، فهل من ضمائر طاهرة وهل من نفوس نبيلة؟ وهل من غيورين على الدين يقومون بتشجيع هذه الأعمال الفظيعة التي يستبشعها الإسلام والعقل الصحيح وسائر المدنيات.

وأخيراً فالنجاح يهنئ سيدي أحمد لحبيباتي وعائلته وتلاميذه ومريديه وجميع أتباعه فنجاته من هذا الحادث الذي ألم العموم ويسأل الله أن يقيه لنفع الخليقة وأن يحفظه في بقية عمره ومن سائر طوارئ الزمان..⁽¹⁾

وفي متابعتها لمجريات واقعة الاغتيال الفاشلة في حق الشيخ لحبيباتي كتبت جريدة النجاح مقالاً تفصيلياً بعنوان: «بعد حادث الاعتداء على الأستاذ سيدي أحمد لحبيباتي الهدوء والسكون يُخيّمان على المدينة» جاء فيه: «ما فتى رجال الشرطة يُوالون جهودهم في البحث عن الجاني أو الجناة الذين قصدوا العلامة البركة سيدي أحمد لحبيباتي بالطلقات النارية التي واقاه الله شرها وحفظ الأمة سوء مغبتها.. ولقد استنطقوا عدة أناس اتجهت نحوهم الشبهات وبحثوا في كثير من الجهات ولم

1- النجاح، ع1884، 12 أوت 1936م - 24 جمادى الأولى 1355هـ.

يعثروا لحد كتابة هذه الأسطر (14 أوت 1936) على مرتكبي هذا الاعتداء الشنيع، أما فضيلة الشيخ فقد صرح لرجال الأمن بأنه لا يعرف أحداً بعينه، كما أنه لا يتهم فرداً أو جماعة، ويعتقد الاعتقاد الكلي أنه حبيب جميع السكان ومسالماً للجميع، والرأي العام يؤكد هذا ويحققه ويستبعد أن يوجد في سكان قسنطينة من يرضى أو يرتاح لإذابة العلامة الشيخ سيدي أحمد كيفما كان اعتقاده والناس كلهم حيارى في هذا الأمر ويؤلمونه بتأويلات شتى وكلها ترمي أن الشيخ مقصود من أناس خارج قسنطينة ربما كانوا (.....)⁽¹⁾ هذا وقد دعا النواب البلديون المكان لملازمة الهدوء كما كنا نشرناه في العدد الأخير، وكذلك وقع فإن القلق الذي استولى إثر الحادث على الأفكار قد زال شيئاً فشيئاً لاسيما والشيخ نفسه حدث وأوصى جميع مريديه بالهدوء شكراً لله على نجاته من كيد الكائدين... وقد ظل الأستاذ منذ صباح الحادث يقابل الوفود المتتابعين لزيارته بداره وتقديم التهاني بسلامته ببشاشته المعهودة وأخلاقه الطيبة، ولم يؤثر في الأستاذ هذا الحادث ولا أثار عواطفه الحسنة نحو العموم بل كل من سأله أجابه بقوله: «كل مقدر يكون»⁽²⁾.

وكثرة اللغط والمهرج المترتب على حادثي الاغتيال في حق الشيخين (كحول، لحبيباتني) جعلت نفوس الضحايا من عائليتي الشيخين يفكرون في الثأر والانتقام حتى قبل انتهاء التحقيق، وقد كان لهذه الحالة القائمة أن جرت أنفوس كثيرة للتحقيق والسجن، كما حدث للأخوين حماني (أحمد ومحمود) اللذين تم استنطاقهما وفي ذلك يقول الشيخ أحمد حماني: «والذي ربطنا بهذه الأحداث هو أن أخي كان قريباً من الحادثة بزواية مولاي الطيب ورأى الجاني يفر، وعرفه وهو يقول: (نجا مني الماكر)، أدركته وهو يروي الحكاية على ملاء من الناس، فنبهته إلى خطر ذلك فعاد إلى صوابه وما لبثت الشرطة أن استدعته وهو تلميذ الشيخ ابن باديس لاستنطاقه وبقي لديها 24 ساعة، استدعينا فيها وسُئلنا عن مكان وجودنا وأعمالنا...»⁽³⁾. وهو ما حدا بجريدة النجاح إلى دعوة الناس إلى التوقف عن القيل والقال: «وهذا وإننا ننصح

1 - يوجد أثر لشطب متعمد لما هو مكتوب.

2 - النجاح، ع 1885، 14 أوت 1936م - 26 جمادى الأولى 1355هـ.

3 - حماني، محاضرات مج 3، ص 421.

لإخواننا المسلمين أن ينقصوا من القيل والقال لاسيما في المقاهي، فإن الأقوال الفارغة والأكاذيب كثرت وربما جرت المهتمين بها إلى البلاء والمحنة من دون أي فائدة أو ثمرة يجنونها منها والله ولي المتقين»⁽¹⁾.

وبحكم التوافق الزمني لهذه الحادثة مع حادث اغتيال الشيخ بن كحول (صديق لحبيباتي) في العاصمة، الذي أمّ جنازته في قسنطينة الشيخ لحبيباتي نفسه، وبما أن مجريات التحقيق الأمني الجاري في العاصمة يوجه أصابع الاتهام حينها إلى بعض رجال الجمعية ونادي الترقى، فإن الكتابات الصحفية الفرنسية ولغط العوام من هنا وهناك جعلهم يحكمون بأن محاولة اغتيال لحبيباتي هي من تدبير نفس متهمي العاصمة، مما يُعد ضربة قاصمة أخرى في جسد الحركة الإصلاحية ككل.

إن هذا الضغط الأمني والشعبي المتواصل -الذي كان يكيل التهم لرجال الحركة الإصلاحية- جعل محرر مجلة الشهاب الشيخ عبد الحميد ابن باديس يدعو سكان قسنطينة وقبيلة الشيخ لحبيباتي إلى التأمل في الوقائع الجارية وعدم الثقة فيما تُسربه الصحف الفرنسية والطريقة التي تقع الفتنة بين الناس، وتحت عنوان: **حادث مريع الشيخ أحمد لحبيباتي يُطلق عليه الرصاص** كتبت تدافع عن الحركة الإصلاحية ورجالها قائلة: «مساء يوم الاثنين 10 من شهر أوت الجاري على الساعة السابعة ونصف تقريبا بينما كان الأستاذ الشيخ أحمد لحبيباتي بنهج زواف في طريقه إلى منزله الكائن بهذا النهج إذا بأربع طلقات نارية من مسدس يقع رصاصها حوله من دون أن يمسه بأذى الأمر الذي حير العقول في تعليل هذه المداعبة الوحشية وبيان أسبابها ومسبباتها».

ونحن بدورنا نقول كلمتنا في هذه الحادثة قبل أن نهي الأستاذ بسلامته، مستنديين فيما نقوله على ما نعرفه من سيرته -وسيرة المرء أصدق شاهد له أو عليه- فهو الرجل السليم المسالم الذي لم يؤثر عنه أنه مد يده لمجرم أو أطلق لسانه بوشاية أو فتنة، فمن أين جاءت هذه المصيبة؟ ومن الذي تولى كبرها؟ ثم أن الحادث وقع في آخر النهار، وفي وسط أهل بالسكان، فكيف استطاع المجرم أن ينجو من أيدي الناس

1- النجاح، ع1885، 14 أوت 1936م - 26 جمادى الأولى 1355هـ.

وحتى من أعينهم فلم تره عين أحد؟ إننا نعد بلهاء إذا صدقنا بأن الحادث بسيط إلى هذا الحد؛ فنكتفي بسلامة الأستاذ وبسلامة الجاني عليه على السواء، وندعي أننا حصلنا على نتيجة حاسمة.

إن الحوادث التي وقعت حول المؤتمر الإسلامي الجزائري قد أثارت المخاوف وقوّت الشعور في سائر طبقات الأمة الجزائرية بأن هناك سلسلة من المؤامرات السرية دبرت لإحباط مساعي المؤتمر، وقبر آمال الأمة في مهدها وما هذه المحاولة الجديدة التي انتهت بسلامة الأستاذ لحبيباتي من نتائجها إلا حلقة من تلك السلسلة الرائعة. إن الذين يعمدون إلى مثل هذه التجارب في تنفيذ أغراضهم السافلة في مثل هذه الظروف لا يسيئون إلى سمعة فرنسا فقط، بل هم يجعلون نجاحها في استمالة الشعب الجزائري والاعتماد عليه في الشدائد أمراً مشكوكاً فيه، بينما كان الاتفاق على وجوب توحيد المصلحة قد كاد يتم.

إن إيماننا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾⁽¹⁾، ثم ثقتنا بالعدالة الفرنسية وبيقظة مصلحة الأمن تُردُّ إلينا بعض الطمأنينة على ما نحن حريصين على بقائه من حسن العلاقة وطمين الروابط. وكلمتنا إلى الأمة الجزائرية الكريمة هي أن تلازم الرصانة التي عرفت بها منذ بداية الحوادث إلى ما وصلت إليه، والتي ستكون سبباً لنجاحها في النهاية وأن تعرف جيداً غرض الذين يريدون أن يتخذوا من حادث الاعتداء على الأستاذ لحبيباتي وسيلة للانتقام ممن يعتبروهم أعداء لهم. ثم نثني على همة الأستاذ وبقظته وتحريه الصدق أمام هيئة الاستنطاق لإبداء رأيه في شخص المتهم. راجين له حياة طيبة وعمرًا مديدًا.⁽²⁾

وربطاً لحادثي الاغتيال المنفصلتين اعتبر تيار الإصلاح أن ما يحدث مؤامرة كبيرة تُدبر من عدة أطراف لها مصلحة في إفشال توحيد الجزائريين من خلال المؤتمر الإسلامي، حيث اعتبرت البصائر «أن الشيخ كحول هو الضحية التي يجب أن تقدم على هذا المذبح لكي يُنسب جرم اغتياله إلى خصومه»⁽³⁾، فيتهم الشيخ العقبي بمقتل الشيخ كحول

(1) - سورة الحج الآية 38.

(2) - جريدة الشهاب، ج6، مج-12 5 جمادى الأولى والآخرة 1355/أوت وسبتمبر -1936 ص (282 - 283).

(3) - «ثلاثة أيام في شهر واحد»، البصائر، ع34، 11 سبتمبر 1936م - 24 جمادى الثانية 1355هـ - نقلا عن مجلة الشهاب.

وتلصق قهمة مقتل الشيخ لحبيباتي إلى الشيخ ابن باديس، وروى الشيخ محمد خير الدين في مذكراته⁽¹⁾ بأن أحد كبار الموظفين وثيق الصلة بالحاكمين علم بما يدبر في الخفاء في تلمسان فتحرك ضميره وأوعز لمن يبلغ الشيخ الإبراهيمي في العاصمة أن لا يدخل المدينة هذه الأيام إن كان يريد السلامة والأمن ففعل وأحبطت المحاولة وخابت المكيدة.

هذه ثلاث محاولات في العواصم الثلاث الجزائر وقسنطينة وتلمسان وهي قلاع حركة الإصلاح ومعاقل قادة الجمعية وهذا دليل كاف على أن المؤتمر كان يخيف الفرنسيين لما حقق من منافع للأمة الجزائرية⁽²⁾. غير أن العامة من خصوم تيار جمعية العلماء لا يفقهون في هذه التفاصيل مما زاد من توتر الأزمة وزاد معها الشحن والحقد من لدن الأطراف المتضررة، كقبيلة الحدررة المقيمة في قسنطينة والتي ينتمي إليها الشيخ لحبيباتي حيث هدد بعض رجالها بضرورة القصاص من المعتدين من تيار الإصلاح بقسنطينة رغم دعوة الشيخ لحبيباتي أهله وأتباعه إلى ضرورة الهدوء والالتزان والعفو عن المعتدين.... أمام هذا الشحن المتزايد دعت جريدة الشهاب جميع الأطراف إلى وأد الفتنة بين الطوائف والجماعات الهادئة: «وجد أعداء الإصلاح والنهوض في حادث الاعتداء على فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد لحبيباتي مادة خصبة يستمدون منها قوة على بث وساوسهم وفتنتهم بين الطوائف والجماعات الهادئة ليشيروا العامة على نفسها فتقع في نزاع مختلط ينتهي بها إلى الفشل وذهاب الريح وعند ذلك لا يجدون مانعاً يمنعهم من ركوبها كالبهيمة الوادعة يتوصلون بها إلى أغراضهم السافلة، ولا غرض لهم سوى هدم ما بناه مصلحو الأمة من صروح الاتحاد ومعاقل النهضة، ذلك البناء الذي رفعه مصلحو الأمة مع الأمة وللأمة؛ ومن مادة لم يجد أولئك الرهط في نفوسهم شيئاً منها؛ فالإيمان والثبات والإخلاص والتضحية كلمات لم تتصل إلا بأسماعهم، أما معانيها فبينها وبين نفوسهم تنافر لا يمكن معه التلاقي أبداً، بينما هذه المعاني العلوية هي رائدة المصلحين وعدتهم في كفاحهم السلمي. ومن برزوا إلى ميدان العداء حاملين راية الفتنة والتشويش هؤلاء الثلاثة:

(1) - محمد خير الدين، مذكرات، ج1، ص340.

(2) - بوغابة يوسف، معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر: دار زمורה، 2013م، ص(137 - 138). للتوسع يراجع: سعد الله، الحركة الوطنية، ج3، ص101.

1. رئيس جاهل لجمعية تعليمية.....
2. شيخ طريقة ملصق بالطيبة.....
3. نجل-غير كريم- لشيخ في الديانة الرسمية.

هؤلاء الثلاثة ومن أسندهم من خلفهم هم الذين اختاروا لأنفسهم الانضمام إلى عصاة الهدم الخفية التي بدأت أعمالها في الجزائر بمناسبة رجوع الوفد الإسلامي الجزائري من فرنسا واجتماعه بالأمة في ميدان الألعاب الرياضية البلدي لعرض أعماله عليها. فمن هؤلاء من رمى بجناية قسنطينة شبان جمعية التربية والتعليم، ومنهم من رمى بها جماعة الشيخ ابن باديس؛ ومنهم من رمى بها الوهابية...! يعني جمعية العلماء وقد صرحوا بشناعتهم هذه أمام الجمهور. والذين حملهم على التصريح بهذا الباطل المكشوف هو ما كانوا يعتقدونه في رجال قبائل الحدرية التي ينتسب الشيخ أحمد لحبيباتي إلى إحدى قبائلها، من أنهم قوم لا يملكون قوة التمييز بين الحق والباطل، وحسبهم أن يسمعوهم بآذانهم فينفذوا بأيديهم، فإذا سمعوا أن شبان جمعية التربية والتعليم -مثلاً- هم الذين اعتدوا على الشيخ لحبيباتي بادروا تَوّاً إلى حمل السلاح للانتقام.

لكن إخواننا رجال قبائل الحدرية وعاصمتهم قسنطينة وأكثرتهم من حاملي لواء الإصلاح أفهموهم بأنهم مخطئون في اعتقادهم، وأن ميزانهم العقلي أدق من أن تروج عليه هذه البضاعة الكاسدة. ونحن لا نريد الآن بكلمتنا هذه دفاعاً عن أنفسنا، إنما نريد فقط أن نكشف إلى الأمة جانباً من الشرك الممدود لاصطيادها، وأن نمد العدالة بما عساها تجد فيه ضوءاً يعينها على الوصول إلى الحقيقة المجهولة، فإن الذي يصرح أمام الناس بأن فلاناً أو الجماعة الفلانية هي التي اعتدت لا بد أن يطالب بمسندة في هذا التصريح. فللعدالة والجمعية التربية والتعليم والجمعية العلماء وللشيخ ابن باديس أن يستفيدوا من هذه الفرصة، فيؤدب من يملك حق التأديب، ويحتج من له حق الاحتجاج»⁽¹⁾.

(1)- ثابت، أعداء الإصلاح في قسنطينة، جريدة الشهاب، ج6، مج-12 5 جمادى الأولى والآخرة 1355/أوت وسبتمبر -1936 ص «286-287»

وقد خفت الوطأة بانتحار الجاني، والإخفاق في تدبير الجريمة، حيث وبعد الاستدلال على ملامحه تمكنت الشرطة من الوصول إلى مكان اختبائه، لكن فر منهم، وبعد مطاردته في أزقة وحواري قسنطينة لم يجد أمامه سوى القفز من قنطرة الشط ليموت ويموت معه سر محاولة اغتيال الشيخ لحبيباتي، ويقول في ذلك الشيخ حماني: «ثم أن الناجي ندم على ما فعل وألقى بنفسه من الغل من قنطرة الشط، وصحبه سره معه، والجاني أعرفه شخصياً وهو شاب غوي متهور ينتسب إلى عائلة معروفة في قسنطينة — (ابن كافادار)»⁽¹⁾.

ورغم هذه التطورات الايجابية لصالح رجال جمعية العلماء والشيخ ابن باديس خصوصاً، إلا أن هذا الأخير وبعد انكفاء فتنة القيل والقال كتب في صدر مجلة الشهاب يطالب بالقصاص ومعرفة حقيقة ما جرى: «هذه جريمة شنعاء فظيعة لا يجب أن يذهب دم الذي كان ضحيتها كما ذهب من قبل دم المستشار «ابرانس» هدرًا، نريد أن تظهر الحقيقة علنية جلية.. نريد أن نعرف ما الداعي لارتكاب تلك الجريمة الشنعاء.. نريد أن نعرف من ذا الذي سلّح يد القاتل وأغراه بالقتل.. نريد أن نعرف من هم الذين أطلقوا عيارات نارية ضد الشيخ المحترم السيد أحمد لحبيباتي بقسنطينة ليُهموا الناس والحكومة أن هنالك حقيقة مؤامرة فتك واغتيال مدبرة للقضاء على بعض رجال الدين بالعاصمة والأفاق.. نريد أن ترتد مكائد الخصوم إلى نحورهم لا بواسطتنا نحن بل بواسطة القضاء التريه... نريد أن يثبت لنا صدق المثل الذي يقول الحق يعلو ولا يعلى عليه...»⁽²⁾.

وكانت هذه المقالة على ما يبدو لي حالياً آخر ما كتب عن موضوع محاولة اغتيال الشيخ لحبيباتي في الصحف الجزائرية والفرنسية آنذاك، حيث تلت هذه الأحداث بداية إرهابات الحرب العالمية الثانية لينسى الناس كل ما جرى مع تلهف ممزوج بسوء العاقبة مما هو آت. لتبقى نداءات وصيحات جمعية العلماء السابقة بضرورة القصاص من الجناة ورد الاعتبار بعد الطعن في أعراض وأخلاق الكثير من شيوخها وتلامذتها لتبقى في النهاية صحيحة في واد لم تجد لها صدى.

(1) - حماني، محاضرات، نفسه، مج4، ص60

(2) - الشهاب، ج6، مج- 12 5 جمادى الأولى والآخرة 1355/أوت وسبتمبر - 1936 ص279.

2. خصاله وشهادات بعض معاصريه:

يُعد الشيخ أحمد لحبيباتي وجهاً بارزاً من وجوه النهضة الجزائرية الحديثة في مطلع القرن العشرين، فقد كان ذا شخصية تمتلك ثقافة واسعة، متعددة الفضائل في شتى المجالات فمن من الناحية الثقافية: هو أديب وفقه ومن الناحية الاجتماعية: هو معلم وواعظ ومرشد؛ وهو من الناحية الدينية متق لله تعالى، عامل بكتابه، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ونصوح للأمة، وصالح ومصلح، ويؤيد الحق، ويُنَبِّه إلى الخطأ أيا كان مصدره، أما من الناحية السلوكية فهو لطيف المعشر يُؤَلَّف ويألف، ويُقدَّر أهل العلم والفضل.

نشأ لحبيباتي في أسرة شريفة، عريقة متينة بالصلة بالعلم والدين، فنهل العلم بالدرس والتقليد، وهو إلى ذلك شديد الرغبة في العلم، واسع الاطلاع على العلوم الشرعية واللغوية، فخور بثقافته العربية وتبحره فيها، فخور بإجازاته وأساتذته، فقد كان على ثقة واسعة، وكانت علاقاته ودية مع الكثيرين من معاصريه سواء كانوا من بني جلدته أو من الفرنسيين، ولم يكن ذا ميل إلى الحط من سمعة الآخرين، ولا إلى تسفيه آرائهم، فيحاول قدر المستطاع عند توجيه نقده تجاه قضية معينة أو تسفيه رأي ما أن لا يذكر شخصاً باسمه.

لقد كان الشيخ أحمد لحبيباتي من المثقفين العصامين أمثال: المجاوي، والونيسي وابن الموهوب وابن زكري، ومحمد العاصمي، لقد جاب المساجد والزوايا والبادية والحاضرة، وحصل على علم غزير، وكانت له نفس بعيدة الهمة توافقه إلى المناصب فوجد ما يُريده، لم يدرس دراسة منتظمة وإنما تحرَّج من المساجد والزوايا فكان من القلائل الذين وصلوا بعد ذلك إلى أكبر المناصب الدينية في قسنطينة. كما كان للدعوة الإصلاحية بالشرق العربي أثر كبير على تكوينه الشخصي حيث كان احتكاكه بها عند أدائه الحج في العام 1933م، ولا يجب إغفال تأثير النهضة التي كان يعيشها المشرق العربي خاصة في جانبها الأدبي فهي الأخرى كان لها أثر على حياة لحبيباتي العلمية والشخصية وإن كانت جاءت متأخرة بالنسبة لسنه، خاصة في الإثراء الثقافي والاهتمام بالدراسات اللغوية.

لقد تبوأ الشيخ لحبيباتي مكانة مرموقة في الوسط العلمي الجزائري، وكان له فضل كبير على العلماء والمعلمين والقضاة والمترجمين الجزائريين الذين تتلمذوا عليه في المدرسة الكتانية وفي غيرها، كما كان له تأثير على عامة الناس الذين كانوا يقبلون على سماع دروسه وخطبه في المساجد. وانتشر تلامذته بدورهم في أنحاء القطر الجزائري ينشرون العلم ويخدمون القضاء الإسلامي ويدعون الناس إلى الإصلاح.

ومن مميزات الغريبة هو دخوله في الطرق الصوفية (التيجانية) رغم علمه الظاهر، وهذا ليس خاصاً به، وإن كان مصدر تكوينه في الأصل هو الزوايا، ولعل الأمر كان شائعاً عندئذ في حياة المفتين والعلماء الجزائريين، ولكن الأغرب في الشيخ أحمد لحبيباتي هو أنه رغم دراسته وتدريسه بالمدرسة الشرعية الفرنسية إلا أن ولاءه للتيجانية بقي ثابتاً مثله مثل المفتي «علي بن عبد الرحمان» مع ذات الطريقة، والمفتي «علي بن الحفاف» مع الشاذلية والقاضي «شعيب بن علي» مع مختلف الطرق الصوفية، ويتبين مما تقدم أن الوسط الذي عاش فيه لحبيباتي ونوعية الدروس التي انكب عليها بالإضافة إلى استعداداته الفطرية، وتأثره بالوضع الذي كانت تعيشه بلاده والذي ازداد سوءاً في ظل السيطرة الفعلية للمعمرين، كل هذه الأمور لعبت دوراً حاسماً في تحديد توجه ووسائله في ميدان العمل الإصلاحي.

فالشيخ لحبيباتي مع علو سنه وأخذه عن طبقة بعيدة الصيت في عالم الشهرة كالشيخين: عبد القادر المجاوي، وحمدان الونيسي وغيرهما كان الأخذ عنهم مدعاة للفخر والاستطالة وشمخ الأنف، فإنه مثل من علماء السلف في إنصافهم وإيثارهم الاستفادة عن كل شيء، وإن من آثار هذا الخلق في نفسه أنه ما كان الأستاذ ابن باديس وهو في درجة أحفاده ممن شاركه في الأخذ عن بعض أولئك المشائخ ينتصب للتدريس بقسنطينة حتى أخذ الشيخ لحبيباتي مع جلاله قدره وسنه مكانه بين التلامذة وكان أجدهم على ملازمة الدروس الكثيرة وأوسعهم عارضة في البحث والمناقشة، إن الشيخ لحبيباتي حجة الله على علماء عصره الذين يذهب بهم الكبر والاستنكاف إلى حرمان أنفسهم من العلم واستطالة واغترار بمكانتهم في السن أو الجاه واحتقاراً لمن هو دونهم سناً وإن كان فوقهم علماً⁽¹⁾

(1) - عنه راجع: - الشهاب، ج4، مج 14، ربيع الثاني - جمادى الأولى 1357هـ - جوان - جويلية 1938م.

من خصاله أيضاً الزهد والرضى والقناعة بما كتب له.. فسمه الزهد على ما في أيدي الناس كانت من سماته الخلقية الغالبة على طبعه، وهذه إحدى سمات العلماء الأوائل الذين جمعوا بين الورع وكثرة العلم فحازوا التواضع بالاجتهاد، وهذا ما تدلنا عليه عديد الشهادات التي أعقبت وفاته رحمه الله منها قول تلميذه الشيخ الشريف الصائغي في تأبينه: «كأنّي الآن أسمع شيخنا أحمد يخاطبنا معانياً... ما بالكم أيها الإخوان لا تحفلون بجنازتي فإنكم تعلمون أنني لم أمل الظهور في الحياة الدنيا ولا طمحت إلى الرئاسة والظهور سحابة عمري عشت في الاختلاء اللازم للعلم والعمل مدة حياتي ملازماً للعبادة والزهد وبساطة الاجتهاد، أفلا تحفلون بجنازتي وتودعوني الوداع الأخير... إن الشيخ أحمد لحبيباتي قد بوأه الله المترلة العالية في فقه مالك فكان فيه كعبة الرواد والسالك وكان رحمه الله تعالى لا ينقطع عن زيارة المقبرة بالمكث الطويل فيها والترحم على موتاه، وكان جواداً لا يقبل عطاء الزائرين وإذا أقبل ففي الحال يتبرع بذلك على الفقراء والمساكين.

عابداً تقياً زاهداً مختلياً بنفسه سلم المسلمون من لسانه ويده وعابد خاضع لله يبتهل، والدمع جار على الخدين طوفان، مات الشيخ أحمد وماتت بموته حلية الفضيلة، مات الشيخ أحمد وماتت بموته المكارم وسياج الأخلاق، فمن لنا بمثل علومك وزهدك، وبما يرضي البيان، ومن لنا من يقوم بعدك بوجوب الألفة والمنصفة بين الناس.. بما أنزل الرحمان..»⁽¹⁾

كما كتبت عنه جريدة الشهاب منوّهةً بزهده وقناعته ومسالته عقب الحادث المريع الذي وقع له: «ونحن بدورنا نقول كلمتنا في هذه الحادثة قبل أن نهني الأستاذ بسلامته، مستندين فيما نقوله على ما نعرفه من سيرته -وسيرة المرء أصدق شاهد له أو عليه- فهو الرجل السليم المسالم الذي لم يؤثر عنه أنه مد يده لمجرم، أو أطلق لسانه بوشاية أو فتنة....»⁽²⁾.

(1) - النجاح، ع 1974، 28 مارس 1937م - 15 محرم 1356هـ.

(2) - الشهاب، ج 6، مج 12 - 5 هجدي الأولى والآخرة 1355/أوت وسبتمبر - 1936 ص (282 - 283).

« إن طبيعة الزهد في هذه الدنيا قد غلبت عليه فلا يتلهف على الدنيا ولا يريد منها إلا ما يسد به الرمق وتُحكى عنه رحمه الله حكايات غريبة في هذا الباب. منها أن حضرة الفاضل السيد الحاج الساسي بن الملي بن داراً فاحرة بنهج بريقو، قد أحسن شكلها ولما انتهى بناؤها تقدم إليه بمفاتيحها وأخبره بأنه عازم على كتاباتها باسمه احتساباً لله، فتبسم الشيخ وكان من الأمر أن طلب من السيد الحاج الملي أن يعفيه من ذلك لأنه غير محتاج إلى السكنى، ولما عزم على التوجه إلى الحجاز في العام الأسبق (1933م) دخل عليه حضرة الفاضل السيد أحمد بوزبونة التاجر الشهير في السميد بنهج ميلة ورغب منه أن يقبل إعانة مالية يستعين بها على السفر فلم يقبلها وقال له: إني أريد أن أحج بما عندي... وأخيراً طلب منه السيد أحمد بوزبونة أن يوزع ذلك المقدار المالي على ضعفاء الحجاز فقبلها حينئذ. أما صدقاته الخفية فكانت رحمةً على عائلات كثيرة ولولا أن المتصدق عليهم ذكروا ذلك لما سمع أحدٌ بصدقاته.. كان يتألم كثيراً على ما أصاب المسلمين من الخلاف وتفرق الكلمة ويُرشد الناس في دروسه إلى إخلاصهم لبعضهم فأعماله القولية لفائدة الدين والوطنية والدعاية لبث العرفان كانت لا تنقطع أبداً...»⁽¹⁾.

لقد كان الشيخ على قدر علمه متواضعاً دمث الخلق، سهل المعشر، نقي الطوية، لا يحقد على من ناصبه العدا، وأظهر له البغضاء، يحبّ طلاب العلم، ويختلط بالعامّة، من غير تكبرٍ أو ترفع، وبالإضافة إلى علمه الغزير كان يتمتع بأخلاق عالية وعلى رأس هذه الأخلاق التواضع التي هي أهم خصلة التي يجب أن يتصف بها العالم الحقيقي. وهي الخصلة التي تفتح لها القلوب وتكسب لصاحبها القبول عند الناس، وقد جاء في الحديث الشريف: ﴿من تواضع لله رفعه﴾. «فالشيخ لحبيباتي كان متواضعاً مع غيره مهما كانت منزلته العلمية أو الاجتماعية. وكان من شدة تواضعه قربته الشديد من تلامذته فهو يهتم بشؤونهم، ويبدل الوسع في قضاء مآربهم ويصده علو المهمة عن مجاراتهم فيما يزري بخطته بالشريعة... ولعل هذا الخلق الذي لا ينبل الرجل إلا به، هو الذي غرس له في قلوب الجمهور مودةً واحتراماً».

(1) - النجاح، ع1974، 28 مارس 1937م - 15 محرم 1356هـ.

لقد تمتّع الشيخ بحسن الصيت، وبإعجاب واحترام وتقدير كثير من العلماء والمصلحين ورجال الأدب الذين لم يستطيعوا حبس تقديرهم له ولجهاده الطويل فتركوا هذه الكلمات الخالدة شهادةً له بعد أن مضى إلى ربه، كما مضوا هم بعده إلى ربّهم، غير أنّ ذكره الحسن، وسيرته العطرة لا تزال تُدرس وتُتدارس إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله.

قال عنه الشيخ ابن باديس: «وفي قسنطينة علماء مدرسون منهم الشيخ أحمد لحبيباتي خريج المنعم الشيخ عبد القادر المجاوي. والمنعم الشيخ حمدان الونيسي والمدرس الرسمي بجامع سيدي الكتاني. (ثم ذكر مجموعة من معاصريه وأدوارهم التعليمية بقسنطينة)... كل هؤلاء السادة مدرسون دائماً أو في بعض الأوقات فهل لحضراتهم أن يكونوا باجتماعهم معهداً علمياً يكون أساس كلية دينية إسلامية بالجزائر»⁽¹⁾.

وعقب نفس حادثة الاغتيال الفاشلة التي تعرض الله مترجمنا كتب مدير جريدة النجاح الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي يستنكر هذه الحادثة ويؤنّه بخصال الشيخ لحبيباتي وأفضاله على العلم والعلماء بقسنطينة قائلاً: «والشيخ سيدي أحمد رجل مسن يناهز 67 سنة يشغل بالتدريس والتعليم في سبيل الله. وهو يلقي دروسه بجامع سيدي الكتاني والزاوية العيساوية. ولم يكن في يوم من حياته دخل في جمعية أو اشتغل بسياسة أو خالط رجال السياسة أو غيرهم. ولهذا بقي متمتعاً بالاحترام والتوقير بين سائر الطبقات»⁽²⁾، «... كان المرحوم مثال الكمال والتقوى والتضلع في العلوم. قد كرّس حياته في نشر المعارف والانكباب على الكتب، ولا يرى من هذه الحياة إلا ما يُصرف من الوقت في سبيل... والتقرب من المولى بالعبادة والاعتزال من الناس حتى لأن الناس مذ عرفوه لم يعرفوا له عملاً خارجاً عن دائرة الجد. وما سمع منه إنسان قط ما يجرح عاطفته والورع أصبح فيه طبيعة بحيث لا يقدم على ما كانت فيه شائبة محذور البتة..»⁽³⁾.

(1) - الشهاب، ج10، ص5، نوفمبر 1939م - 1 جمادى الثانية 1348هـ.

(2) - النجاح، ع1884، 12 أوت 1936م - 24 جمادى الأولى 1355هـ.

(3) - نفسه.

قال عنه الشيخ أحمد حماني: «كان تقياً زاهداً بعيداً عن الشهوات محبوباً من الناس كلهم.. انتفع بعلمه الكثير»⁽¹⁾. ويضيف في موضع آخر فيقول: «كان رجلاً طيباً زاهداً بعيداً عن كل حركة، مترفعاً بنفسه عن سفاسف الأمور محبوباً عند أهل المدينة وله فيها عصبية شديدة»⁽²⁾.

ومن الذين نوهوا بخصاله وخلالاله الحميدة تلميذه الشيخ علاوة الويسي: «إيه أبا الطاهر سيدي أحمد لحبيباتي شيخ النساك والعباد وقطب رحى الزهد والورع والتواضع عندما تضطرب الأبواب.. والألقاب، عهدناك على جانب عظيم من مكارم الأخلاق والحسنات هشوشاً بشوشاً في وجوه العباد، ومسكة طيبة في المجالس والنوادي وسائر الأنحاء والمحافل والبلاد، ما تنزلت مشكلة في الدين إلا وكتب لها بعلمك من السنة حاسماً. وما أصاب المؤمنين من وحشة إلا وزالت يمين (عربكتك) وحصافة فكرك وعذوبة لفظك كأنك أوتيت حكمة قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾⁽³⁾، وكأنك عامل أبداً بحكمة قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁽⁴⁾. حتى كان كل من قرب منك ولياً حميماً ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾⁽⁵⁾.

عرفناك طاهراً صلاًء تلاء ذاكراً لله تعالى في الخلوات والجلوات لا تفتقر عن دروس الدين وعن الحق واليقين حتى مماتك.... همة عالية، نفس زكية، روح نقية، طاب النعيم بها زهرة من الحياة الدنيا اقتطفتها يد من الرحمة فألقت بها في ضواحي عليين وسنة الأزهار قطف أو ذبول.... هذا قمر اعتراه من بيننا خسوف ولكن الأقمار تخسف وتعود وهو لا يعود، وهذا وجه من السعد زال وحال غير أن السعد تحول وتقول وهذا لا يقول.. وهذا نسر تقاصر عمره وإن أعمار النسر لتطول..»⁽⁶⁾.

وفي ذات السياق يقول تلميذه وصديقه الشيخ الطاهر بن زقوطة منوهاً بمجمل خصاله: «يا قوم فمصيبتنا في هذا الأستاذ الجليل والله عظيمة ورزية الأمة الإسلامية

(1) - حماني، صراع بين السنة والبدعة، ج 1، ص 377

(2) - حماني، محاضرات، مج 4، ص 60.

(3) - سورة طه، الآية 44.

(4) - سورة النحل، الآية 125.

(5) - سورة المائدة، الآية 54.

(6) - النجاح، ع 1975، 31 مارس 1937م - 18 محرم 1356هـ.

تالله كبرى وجسيمة، أسفاً أسفاً ولكن لا مفر يا رب من حكمك المبرم وقضائك المحتوم المحكم. ماذا أقول في حق هذا الرجل العظيم والأسف ملء الجوانح؟ بماذا أفوه في حق هذا العالم النبيل والجزع يحذر الأعصاب والجوارح. سار الأستاذ إلى رحمة ربه، وترك لفراقه الأبواب حيارى والعيون تنهمر دموعاً والأكباد وتفتت أسفاً وحزناً. سار الأستاذ إلى السلام بسلام بعد قيامه بواجباته نحو الخالق والمخلوق أحسن قيام، سار الأستاذ إلى مولاه بعدما صرف كامل عمره في الإرشاد والتعليم للسعي حثيثاً وراء كل ما يعود على الإسلام بالنفع العميم.

كان أحمد الرجل الشجاع في الذب عن حياض هذا الدين. كان أحمد الرجل الثابت في المناضلة عن سيد العالمين ﷺ، كان أحمد السيف الصارم على رقبة كل من يؤذي أهل الله الصالحين، كان أحمد المسلم الكامل الذي سلم الناس من يده ولسانه، كان أحمد عنوان الفضائل والفواضل وأنواع الكمال، كان أحمد المثل الأظهر في العلم والعمل والخشية والسكينة. كان أحمد المجارب ومجالس الوعظ والإرشاد حلة وزينة أسفاً. أسفاً للمصاب لفراق هذا الفقيه والله العظيم. لكن لا ينفع يا قوم إلا الصبر والتجلد والرضى....»⁽¹⁾.

3. وفاته :

وفي أواخر شهر فيفري من سنة 1937م، ألزمه المرض البقاء بمقره ولم يعد يخرج للناس ولا حتى للصلاة، وكان أصدقائه وتلاميذه ومعارفه يزورونه باستمرار في بيته، وهم يلهجون له دعاءً بالشفاء العاجل، كتبت عن ذلك جريدة النجاح في أحد أعدادها قائلة: «أصاب العلامة الأتقي الشيخ سيدي أحمد الحبيباتي توعك في مزاجه ألزمه الفراش بسبب مرض الحصاة⁽²⁾، وبالأمس (أي يوم السبت 20 مارس 1937م - 06 محرم 1356هـ) وصل إلى حالة خطيرة جداً، وقد أمّ داره لعيادة جنابه خلق كثير من جميع الطبقات، وعمّ الاستياء في البلاد فترجو له السلامة والشفاء العاجل»⁽³⁾.

1 - النجاح ع 1974، 15 محرم 1356هـ - 28 مارس 1937م.

2 - هكذا ورد في نص الصحيفة، ولم أتمكن من معرفة صفة وأعراض هذا المرض!

3 - «توعك الشيخ أحمد الحبيباتي»، النجاح، ع 1971، 21 مارس 1937م، 07 محرم 1356هـ.

لكنه لم يلبث على هذه الحالة الخطرة إلا ثلاثة أيام أخرى ليقضي في اليوم الأخير منه، أين فاضت الروح إلى بارئها يوم الثلاثاء 10 محرم 1356هـ الموافق لـ 23 مارس 1937م. وعن هذه الصدمة الأولى كتبت جريدة النجاح موضوعاً عنونته بالبند العريض: «الفاجعة العلمية الكبرى. حزن العلم والورع ومكارم الأخلاق الشيخ سيدي أحمد لحبيباتي الأستاذ بمسجد سيدي الكتاني يرتحل إلى الدار الآخرة»، جاء فيه: «..الشيخ سيدي أحمد لحبيباتي العالم الأشهر بالديار القسنطينية المعروف بالورع والصلاح وحسن الأخلاق..يودعنا إلى الدار الآخرة. ويترك حسرة في النفوس إثر مرض عاجله فاحتطفه على قرب عهد من دروسه الحافلة وأعماله الصالحة... شاع نعيه في مدينة قسنطينة فكاد الناس أن يكذبوا انهار هذا الصرح الشامخ لأن سبل علومه لم ينقطع إلا خلال مدة قصيرة فساد الأسف جميع الطبقات، ومن ذا الذي لا يتأثر من فقد هذا الرجل العظيم المحبوب عند جميع الطبقات، الموقر لدى الخاص والعام، المثال البارز في التقوى وطهارة الضمير وحب الخير للعباد، صاحب الأعمال البارة الخالدة والمعارف التي انتشر طيبها في جميع الجهات.

طار الخبر في الآفاق فشرعت القطارات تحمل الخلائق من جميع النواحي يعلوها الحزن العميق فاحتشدت المدينة بأهل العلم والفضل وذوي الحشيات البارزة فجاءت الوفود من الخروب ووادي الزناتي وعين مليلة والميلية ووادي العثمانية وشاطودان.... الخ، للمشاركة في الاحتفال بجثمانه وتشيعه إلى مقره الأخير»⁽¹⁾.

وتماطلت على الصحف العربية والمفرنسة برقيات النعي والتعزية من كل طبقات الأمة وشرائحها وتوجهاتها، «لقد وقع الاهتمام الكبير من طرف الفضلاء الآتية أسماؤهم وأشهرها باسمهم في الصحف الفرنسية (لأنها في الأغلب يومية) نعي المرحوم وهم: عائلة الفقيد، عائلة بني حافظ، عائلة ابن الملي الحاج الساسي ابن بلال مهدي الحاج محمد، بو حجر الحاج دحمان، صحراوي محمد الصالح عرفة مسعود، الدكتور بن جلول، رؤساء الزوايا، أعضاء الجمعية الدينية الإسلامية، الرئيس وأعضاء جمعية السلام، أعضاء نادي الاتحاد...»⁽²⁾.

(1) - النجاح، ع1973، 26 مارس 1937م، 13 محرم 1356هـ

(2) - نفسه.

«لقد ترك نعي العالم الصالح الأستاذ سيدي أحمد لحبيباتي حزناً وأسى عظيمين في قلوب السكان الجزائريين الذين عرفوا الفقيد والذين سمعوا بفضلته وخيريته وما منهم إلا آسف وذاكر لمناقب الأستاذ وما كان عليه من الصلاح الحقيقي رحمه الله رحمةً واسعةً وأغدق جدته وابل الرحمات»⁽¹⁾.

ودفن بقسنطينة، وحضر جنازته جمع غفير من أعيان المدينة وعلمائها، وطلابها وأبنه ورثاه كثير من زملائه وتلاميذه، بخطب وقصائد شعرية وقد تحدثت جريدة النجاح⁽²⁾ والشهاب عن جنازته.. كما خرج الناس فيها بالآلاف وحضرها نخبة المجتمع الجزائري بكل متناقضاته، منهم الشيخ ابن باديس وطلبته وشيوخ الطرق الصوفية ومريديهم، ومنهم أيضاً أتباع التيارات السياسية والنقابية والعمالية والاجتماعية المختلفة والمتضادة في توجهاتها⁽³⁾.

وبالنظر إلى الكم الهائل من برقيات النعي التي انهمالت على الصحف، وضخامة الموكب الجنائزي الذي حمل جسده الطاهر إلى مثواه الأخير نكتشف أن وفاته حقاً كانت رزية عظمى للإصلاح والمصلحين، وللجهاد الوطني في الجزائر ككل، فبكاه تلاميذه في كل الأنحاء، وندبته الجزائر وانفطرت قلوبها بموته، وأسرت قسنطينة ونواحيها فسارت في جنازته وكانت جموعها غفيرة لم يشهد الناس مثلها في جنازة، ودفن بها يرحمه الله. وكان عمره سبعون سنة قضى منها اثنين وأربعين سنة في الجهاد وإحياء الجزائر وتعليم الناس في سيدي الكتاني. وأتمها بسبع سنين تطوعاً بعدة زوايا ومساجد بالمدينة بعد تقاعده في عام 1930م⁽⁴⁾.

«كان الموعد المضروب لتشيع الجنازة الساعة الرابعة بعد الظهر من أول أمس (الأربعاء 24 مارس 1937م، 11 محرم 1356هـ)، فاستعدت الجمعيات والنواب على اختلاف مشاربهم، وما كانت الساعة الثالثة حتى أغلقت الدكاكين كلها في جميع المدينة وحتى دكاكين بعض الأوروبيين، فكانت أنهج الحارات خاوية لا رائح فيها ولا غادي بها، وشرعت الناس تتجمع أمام دار الفقيد ولكن الأنهج لم تكن كافية

1 - النجاح، ع1975، 18 محرم 1356هـ - 31 مارس 1937م

2 - النجاح، ع1974، 15 محرم 1356هـ - 23 مارس 1937م.

3 - حماني، صراع بين السنة والبدعة، ج1، ص377.

4 - النجاح، ع1974، 15 محرم 1356هـ - 23 مارس 1937م

لوقوف الناس فامتلات بالخلائق ساحة باب الواد ونهج ناسيونال وامتد التيار إلى المقبرة بازدهام عظيم وهم واقفون لانتظار خروج موكب الجنازة.

تقدم أصحاب الزوايا كلهم أمام الجنازة ثم تلاميذ مدرسة السلام ثم النواب ويتقدم الجميع الحكيم بن جلول، وتحرك الموكب تحت الهيللة والتسبيح، ما كان أعظم ذلك المنظر المزدهم الذي كاد أن يتعذر فيه المشي، وفي نفس الوقت الذي حُملت فيه الجنازة كانت المقبرة والمصلى غاصين بالخلائق، ولا يمكن أبداً أن يدخل المرء إلى المصلى كما انتشر الناس على الربى والهضاب داخل المقبرة كالجراد المنتشر.

بعد أن تحرك الموكب كان السير بطيئاً جداً لتهافت الناس على النعش بقصد التبرك والفوز بلمسة حتى اضطر البوليس إلى التدخل، ولكن هيهات أن تنتهي تلك الغوغاء وسط ذلك الجمع الحاشد الذي يقدر بخمسين ألفاً من المشيعين، مشيت الجنازة محمولة على الأعناق وأطراف الأصابع من نهج ناسيونال فباب الواد فبين البساتين فبطحاء لامورسيير فنهج فلوري فساحة الأهرام فالمقبرة ولم تصل إلى المصلى إلا بعد ساعة ونصف. وصلت المصلى ووضع تحت جهد جهيد والناس يضعون أيديهم على النعش المتبرك، ثم تقدم جناب الشيخ المولود بن الموهوب مفتي الديار القسنطينية وصلى بالناس صلاة الجنازة ثم رُفعت فعاد الهرج إلى أن وصلت إلى الضريح. قلنا يا سبحان الله فكأن أبا الطيب المتنبى قد حضر هذا المشهد إذ يقول يرثي أبا إسحاق التوخي:

حَتَّى أَتَوْا جَدَثًا كَانَ ضَرْيُهُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُوَحِدٍ مَحْفُورُ
كَفَلَ الثَّنَاءُ لَهُ بَرْدَ حَيَاتِهِ لَمَّا انْطَوَى فَكَأَنَّهُ مَنْشُورُ

فكمال الأخلاق وحسن السيرة تُصَيِّرُ القلوب مجمعة على حب الشخص ولاسيما الراحل الذي لم يعهد منه أحد شيئاً يكدر العاطفة، دخلت الجنازة ووقعت تلاوة سورة ياسين والمعوذتين عليها، وتُليت فاتحة الرحمة للفقيد وانصرف الناس راجعين آسفين على طود راسخ من العلم والتقوى أوروه التراب ورجعوا.. وما يذكر أن البرنامج الذي قرره النواب وأصحاب الطرق لتشيع الجنازة ينطوي على خطب

كثيرة، وبالفعل استعد الخطباء لإلقاء خطبهم إثر الدفن ولكن تعذر ذلك لأمرين: أولهما ضيق الوقت بحيث أن الفراغ من دفن الفقيد لم يكن إلا حوالي المغرب. وإذا وقع الشروع في الخطب لا شك تمتد تلاوتها ساعتين تقريباً فوقع العدول عن ذلك لهذا السبب، وثانيهما كثرة الغوغاء وهجوم العامة على الجنازة بقصد تشييع الفقيد إلى الدار الأخرى فلم ينفع في الأمر إلا الإسراع بالدفن اجتناباً للهرج فلم ترجع الحال إلى السكينة إلا بعد انتهاء الدفن، وحقيقةً قد وقع ما لا ينبغي أن يقع من الضوضاء واقتراب العامة من الجنازة.. حتى كادت المسألة أن تكون من قبيل العراك...».

وفي مساء يوم الدفن قامت جمعية الطرق الصوفية بقسنطينة بتنظيم احتفالات بتلاوة الذكر الحكيم على النبي الكريم فوقع الاجتماع العام أولاً في الزاوية التيجانية ووقع فيه تأيين المرحوم وألقيت خطب هامة منها خطاب الشيخ علاوة الونيسي وآخر للشريف الصايغ وغيرهما من الخطباء العديدين. وبعد انتهاء الاجتماع فُتحت أبواب الزوايا على مصراعيها لتلاوة القرآن الكريم والتسبيح وقُدمت للفقراء جفان الطعام بقصد إهداء ثواب جميع ذلك إلى روح الفقيد وكانت الصدقات تترى على الزوايا من ديار العائلات الكبرى، وقد استمرت مُفتحة والقرآن العظيم يُتلى بها إلى أن طلع الفجر فصلّى الناس الصبح وانصرفوا».

الخاتمة:

إن حياة الشعوب والأمم مدينة بالفضل لرجال برزوا وقدموا لها ثماراً تظل تتغذى عليها أجيال فأجيال، رجال تمتد أعمارهم قروناً ويطوي ذكركم وعلمهم المسافات والأزمان، رجال هانت الدنيا في أعينهم، وصغرت المشاق عندهم حين قاسوها بالغايات المرجوة وكأنه كان يدرك ما سوف يؤول إليه، لقد شكّلت حياة الشيخ لحبيباتي نواةً حقيقية للحركة الإصلاحية والأدبية في الجزائر الفتاة، لقد استطاع الشيخ بمنهجه في التدريس وأسلوبه في التعامل مع الواقع المحيط به أن يُعطي لنفسه مكانة عظيمة بين معاصريه، وباتت دروسه وفتاويه مدرسة روحية واجتماعية وأدبية وعلمية تربي عليها العديد ممن سيجملون مشعل النهضة والإصلاح فيما بعد، فكان بذلك من أوائل من نبّه الأجيال الجزائرية الناشئة إلى ضرورة الاستفادة من عظمة تاريخنا بدون تحييز، والاستفادة بعلوم الغرب من دون انغلاق، وتحفظ مقيت من أجل النهوض والارتقاء، كما قام بتصحيح الكثير من المفاهيم المغلوطة في أذهان العامة عن الدين والمجتمع والثقافة والتاريخ...

من خلال هذه النظرة العامة والعابرة في حياة الشيخ لحبيباتي والتي أحببت أن أسميها محطات فقط لأننا في الفترة الحالية تعوزنا المصادر والوثائق لاستجلاء كافة مراحل حياته وجميع أدواره الدينية والثقافية والاجتماعية وشهادات المعاصرين والمهتمين بفكره ومنهجه، نستشف أننا أمام قامة علمية وأخلاقية كبيرة في زمانها ولكن طالها العسف والتجاهل من لدن المهتمين بالترجمة للعلماء والمصلحين الجزائريين، ويبدو أن أثر الشيخ لحبيباتي في الناس على مختلف المستويات يرجع إلى نشاطه التعليمي والاجتماعي بينهم بالدرجة الأولى، مدرساً ومناقشاً ومحاضراً وخطيباً قبل أن يرجع لما قدم في الإسهامات الجمعوية والثقافية الأخرى، وهي حقيقة تصدق على كثيرين غيره من بينهم: عبد الحميد بن باديس الذي شغله - كما قال صادقاً - تأليف الرجال عن تأليف الكتب. هذه نبذة قصيرة من جهاد هذا الرجل العظيم الذي شرع لنا هو ومشائخ آخرون من الذين عاصروه أو جاءوا من بعده طريق العلم والإصلاح

فسلكناه، فهو من أساتذة الجزائر العظماء الذين يجب أن تسمى بهم أكبر معاهدها وأكبر الشوارع في عاصمتها، إحياء لذكراهم، ووفاء لهم يرحمهم الله.

وفي الأخير أرجو أن أكون قد وُفقت إلى حد ما في إيفاء الموضوع شيئاً من حقه، وأن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ورغم كل ذلك ما زال في النفس شيء من حقي، عسى أن يُوفقنا الله في تحقيق دراسة وافية شاملة ودقيقة بمصادر أخرى والله من وراء القصد.